حقداً وغضباً.

- ما هذا؟ ما هذا السور البشع...؟ متى بنوه؟ وكيف اقاموه بهذه السرعة...؟ وصبغوه... بهذا اللون الاصفر الفاقع... مثل لون السلّ؟

يدور حول السور... باحثاً عن فتحة... ينفذ من خلالها... يدور... ويدور... حتى يلهث... يزجره السور محذراً:

- لاتقترب... لاتقترب... السور مكهرّب.
- سأجد... منفذاً... لم يصله تكنيككم... الشريّر.
- مستحيل... المدينة كلها ترتدي هذا السور.
- لابُدَّ أن أجد ثغره... أو اثغر ثغره... مهما كلفني الأمر.
- عبثا... تحاول... السور... لايرحم.
- لا أفكر باستجداء الرحمة...
- ستندم... يا هذا... ستندم...
- لن أندم على فعل اختاره.
- السور... قناص... متحرك... زاحف...
- ومع هذا... أحاول... لابُدَّ ان احاول.

وحاولت...

حاولت اولاً، أن انفذ من خلال الفراغ الذي قام... أو أُقيم... عليه هذا السور الغريب. ذا اللون الأصفر الفاقع، الملطخ بالخضرة الداكنة، المتشكلة في هيئة اشكال حيوانات، غير مألوفة. لكن أسفل السور... أعني الجزء السفلي منه، المزروع، أو بالأحرى المدفون، في الأرض تحرك... حركة موضعية، عنيفة.

رفسني حذاء اسود ثقيل، رفسة قوية، دفعتني الى الوراء مخلفة الماً شديداً في منطقة الصدر من جسمي. تراجعت الى الوراء... استلقيت. على ظهري بعيداً بعض البعد، عن متناول السور... ريثما استرد أنفاسي... واتيح لنفسي فرصة... لابداع طريقة اخرى... توصلني الى هدفي... كانت السماء مفروشة بالنجوم المنعقدة، نجوم تبدو كثقوب... عميقة الغور في جسد السماء... تتدفق من خلالها شلالات ضوء استغرقني... تأمل السماء والتمعن في النور المتدفق

عبر كوى لا يحصيها العد... فترة... لا أدري كم هي... ولكنها كانت كافية... ان تنبهني... الى مايتوجب عليّ فعله...

زحفت على بطني. عائداً نحو مدينتي التي يفصلها عني السور البشري... امتلأت أنفاسي بأنفاس الأرض... واختلطت... وأنا استمع الى نبض قلبها... وقلبي... المتداخل... .

نما في داخلي مجدداً، الأمل واعشوشب. واحتواني شعور طاغٍ بالفرح... أحسست اثره براحة عظيمة تسربلني... تشمل كل كياني... فانهلت على الأرض، بعشق لامحدود... اقبلها قبلات حارة... طويلة... قضمت، من شدة حبي وعنفه. قضمة كبيرة من التراب... على مهلك يا ولدي على مهلك... انت تقتلع ثدي امك... جائع يا أمي... جائع. منك استمد حياتي... اشرب يا حبيبي اشرب... انهل من نبع حبي الازلي الذي... لاينضب...

امتلأ جوف فمي بالتراب اللين الهش... وضعته في حلقي... فاستحال كتلة رطبة احسست لها مذاقاً غريباً. اخرجتها من فمي... وضعتها تحت شلات النور المنسابة من ثقوب السماء فألفيتها - وياالدهشتي- حمراء...

حمراء؟ ؟ ؟

كيف؟ لماذا؟ من فجر عروقك بالدم... انت الاخرى؟ أنسيت مياه البحر؟ مياه البحر... اكانت حمراء ايضاً؟

آه... ايتها... التربة الحمراء... التي نبت في اعماقي... وتجذرت في وجداني. ونمت في ضميري... وأينعت ذراتها... في أوردتي وشراييني... فاصطبغت بلون فجري المقبل كم اعشقك... اني اموت في هواك... وفي سبيلك... اني...

يهتمّ ان يتوغل أكثر في حالته الوجدانية... ويستمر في مناجاته العاطفية... لـ... لأمه... ولكن صوته... يختنق... كأن يداً قوية... تطبق على حنجرته... ويجيب... همساً داخلياً... إنبعث من اعماقه:

- حقاً... لاوقت للعواطف. تكفيها السنوات التي أهدرتها من عمري... دون جدوى... آن الاوان لإستخدام العقل... والمباشرة... بالعمل...

ومع هذا... لايقوى على التحرر من حالته العاطفية... ومغادرتها كلياً... إذ

يمزق... بمنتهى الرومانسية، شريطاً طويلاً من ثوبه يشد به كتلة الطين الحمراء... بعناية بالغة... على صدره، فوق القلب... تماماً... ثم يواصل زحفه الوئيد... بحذر...

السور يتحرك... يتحرك اسفله. تروح حركاته هباءً... إذ لاتصيب مقتلاً من أحد... لاتصيب سوى... الهواء...

وفي اللحظة، التي انكسر شعاع من الشمس التي أشرقت لتوها على النعل الذي ارتفع في أكثر من مكان... لينغرز في جسدي ويسفح المزيد من الدم... قفزت... قفزة هائلة... عن مرماه، ... وقبلما اتيح له فرصة لترميم فشله... أسرعت نحو الداخل:

- لاتدخل المدينة... ايها المجنون... لاتدخلها...

- ... ...! !

- انها لم تعد مدينتك... لم تعد مدينتكم...

احتضنت قطعة الطين... اللدنة... تحسستها بأناملي برفق وحب، إلتفت نحو السور... تعلقت عيناي بعلامة الموت... السداسي أو الثماني... عاينت صعوبة في تبيّنها... إذ كانت الشمس تنحدر... عنها... ولا تمنحها نورها...

هممت أن أقول شيئاً... لهذه الوجوه المختنقة بالدم... ولكني آثرت الصمت... اكتفيت... بان تحسست جسد الطين، مجدداً ضغطت عليه... بزهو... وواصلت سيري... نحو مدينتي...

٥-١- البؤس في مدينة البؤس.

ودويّ الصوت، في المدينة، ثانية:

- مضى الكثير... ولم يبق سوى القليل... ها قد اقترب الليل من نهايته، وستعود الى المدينة بهرجتها... مثلما تعود الى الوجوه زينتها... بمجرد ان يتم القضاء على الوحش...

- هيه... أنت... يا من تنفخ في البوق... وتختفي خلفه أو فيه اكشف عن وجهك... اريد ان اراك... ان اتحدث اليك.

- ! ! ! !

٥-٢- حين داسوا احلامي وظلت الأيام تتناسل!

٥-٢-١-

شارع يسلّمني الى شارع... زقاق يقذف بي الى جوف زقاق. حتى وجدت نفسي أخيراً... وجها لوجه... قبالة الدار، التي أبصرت النور، لأول مرة، في إحدى غرفها الشبيهة بتجاويف القلب. ومن فرطي حبي لها... وشدة تعلقي بها. لم اقوَ على مفارقتها... قط.

رحل أكثر اصدقائي من المدينة... تاركين بيوتهم ومرابع ذكرياتهم ومنابع احلامهم... وشرايين حياتهم... ونصحوني أن أرحل معهم... هرباً من الطاعون، الذي اجتاح البلاد على حين غرّة. بيد أني لم أفعل... قلت لنفسي... أن أموت... إن كان لابُدَّ أن أموت أو أقتل... وقطعاً سأموت... أو أقتل ذات يوم، بطريقة ما... تحت ظلال شجرة التفاح التي زرعها ابي في باحة الدار، يوم خروجي الى الحياة... على حد تعبير امي... قرب الشجرة التي زرعها ابوه... يوم مجيئه الى الحياة... خير لي من أن أموت، أو أقتل، تحت... ظل شجرة، لم اسقها، ولا سقاها ابي، بالعرق النظيف المتصبب من جبين التعب والكد... أو عند شجرة لم يداعب شوكها باطن كفي... ولا دغدغ اريجها... مسامات جلدي... ومن يدري... فقد لاتكون ثمه اية شجرة، ولا حتى بقعة ارض، في الدنيا كلها، ترضى أن تظلل أو تأوي إنساناً... لم يفعل من اجلها شيئاً.

قبعت فيها. بالرغم من الظلام الذي يحاول ان يمتص كل شعاع ضياء، ويسد كل كوة نور... عاملاً، قدر طاقتي... وامكاناتي الذاتية احياناً... والمصبوبة في طاقة وامكانات آخرين، احياناً اخرى أن أحرر شعاع نور من قيوده... وأفتح كوة ضياء في الحائط الحجري الصلد... ورحت، كما الجنين في الرحم، اكوّم الايام والليالي... اصنع... منها... أو هي تجدل من نفسها... الشهور والسنين... دون أن اغادر داري... هي جزء مني... وأنا بعض منها... وهل للجزء... خارج الكل حياة... أم للبعض، دون الجميع، بقاء؟

ثم...

(اشفقت) و(حنّت) و(عطفت) عليّ... الجهة التي خولت لنفسها التعامل مع حريات الآخرين... وحمايتهم من (اضرارها) وقت الحاجة...

وكان ذلك... في ليلة سوداء... وحشية السواد... تشوه فيها وبعدها... وجه الزمن...

تتدفق في أعماق نفسي الحالكة... دفعة نور... تبدد الظلمات التي يكدسها الواقع حولي... وفيّ... وتشيع في كياني... حناناً طاغياً الى تلك الأيام المضيئة... المتجذرة في ضميري... المورقة في كل وجودي... فاغوص في ذاكرتي... التي هدّها التعب... والتي ذاقت المرّ... من مداعبات الذين استضافوني... ومن طقوس ومراسيم... ضيافتهم الغريبة... التي مارسوها... معي... طيلة فترة الاقامة الاجبارية عندهم... وأظل اغوص... كسفينة تائهة... تمزق شراعها... في أعماق بحر هائج... متلاطم، يهددها... خطر مجهول... تبحث عن مرفأ... آمن يقيها اهوال البحر... وكواسجه الكاسحة... حتى ارسو... عند أعمق نقطة في قصرها... عند أكثر مواقعه... أمناً... وأماناً... زوجتي اطفالي... أمي... أبي...

هذا الحائط، وحده، الحاجز، الذي يفصل بيني وبين أجزائي... المبعثرة فيهم... سيتهدم هو الآخر... لابُدَّ أن يتهدم... سأهدمه... وأخترقه... وإذاك... إذاك فقط... يلتئم الزمن المكسور... وتتواصل من جديد... حلقات اللحظات... والأيام... المنقطعة...

ولكن قبل كل ذلك... ينبغي أن ألمّ شتات نفسي والتقط أنفاسي... واستعيد شكلي الأولي... و...

- البستان وافرة العطاء... هذا العام...

كنا نجنى الثمار... (نحوش) البرتقال. صباح يوم صيفي... مشرق.

سألتها:

- وعطاء بستاننا الصغيرة يا حبيبتي؟

لم تفهم.

جسدت حالها في نظرة حلوة... متسائلة... ثم حولت سؤالها الى شفتيها

اللتين إنفرجتا... عن إبتسامة مشرقة... تفتح باباً... يفضي الى كون من السعادة...

لم أتمالك نفسي.

تركت حبات البرتقال، تنثار... كرات ذهبية... فوق الأرض...

حلقت نحوها... يطير بي... جناحا... شوق... لاحدّ له... احطتها بذراعي، شددها الى روحي ورحت... الثم قطرات العرق المنحدرة من جبينها فوق خديها الموردين... بشفتي اليابستين المتشققتين. ألتقطها... حبة... حبة... فما تروي... عطش اليها...

غرست أناملي المغبرة... في حقل السنابل المتربة... المحمول فوق راسها... ضممتها الى صدري اكثر... ولو استطعت ... لأدخلتها بين ضلوعي... ورحت اشتم رائحة الأرض العبقة... مليئة بالحياة والامل.

رنت الى طويلاً بعينين تفيضان حباً... احسست اني اراهما... تتموج عبر نظرتها... تلمست بطنها المتكور قليلاً... غضت بصرها بإستحياء... زرعت عيونها في الأرض.

- لاتخجلي يا زوجي... الحبيبة.

- هي الأخرى. عامرة.

إندفعتُ في لهفة عامرة.

- حقا؟ ... حقا، ياسلاف.

أومأت برأسها إيجاباً. وإرتمت عليّ واخذت تلتصق بي... بحنان... تدخلني...

تساءلت:

- برتقالة؟

كورث لها قبضي... اجابت باشراقة:

- هـ ء. هـء... مازال الوقت مبكراً...

- مشمشة... اذن هي مشمشة.

- بل... حبة عنب... بهذا الحجم.

خطفت أناملها... التي تشكلت على هيئة حبة عنب... واسرعت... أمصّها...

أمص حبة العنب فتزهر في داخلي... كرمة وفيرة العطاء... وارفة الظلال... تتدلى منها العناقيد... وانا اقول لها... بيقين... تنبؤي

- ستغدو... مشمشة... ثم برتقالة... بعد أيام... ثم... ثم... ثم تكبر... نسقيها الحب... ونطعمها... الحنان ... و... وفجأة ذات صباح... أو... عند مساء... تدب بيننا حياة... حياة جديدة.

- والآن... دعني... لقد طفح الماء... تحت شجرة... الخوخ...

وتحاول التملص من بين ذراعي... المشدودين حولها... مثل غزالة ميساء... ولكني... أمسك بها:

- ليطفح... ليطفح... ياسلافتي... ولتطفح معه الدنيا... بالخير والعطاء... ولتظل بستاننا... الكبيرة ورغم صغرها... تطفح بالثمار.

وطفحت... بستاننا... بالفعل بالمزيد، والمزيد من الثمار... ناضجة يانعة... نضرة... مرّة... مرتين... ثلاثاً... أربعاً.

- أما يكفينا؟

- زيادة الخير... خير... ياأم الخبر والعطاء...

وزاد الخير... وكثر العطاء... وعمت السعادة والفرح... في بيتنا... في مديننا... في البلاد كلها... ثم...

ثم...

هجم الجراد... أكل الأخضر وتقيأ اليابس... فإختفت الخضرة وعم اليبس. إنكسر الزمن واستحال رعباً وموتاً... فتراجع الخير... وعقم العطاء... واغتيل الألق في العيون... وقُتل الفرح في القلوب... ووئد الضحك في الافواه... وتلاشي الابتسام على الشفاه... فتجهمت الوجوه واكفهرت الارواح... واكتأبت الحياة... وساد العبوس آه... آه... وألف آه... على زمن تغيب فيه العدل... وتشوه فيه الجمال.

وكمحاولة للخلاص من هواجسي وافكاري السوداء التي غرتني مددت يدي الى قطعة الطين المشدودة على صدري. غرست فيها أصابعي... فاحسست، بالرغم من صلابة وتحجر كل شيء حولي... انها طرية لينة... فأخذت أصرخ... بفرح طفولي... لاإرادي.

- سلاف... سلاف... لاتزال بستاننا تفيض بالحياة. عروقها تنبض بالحياة... وانها لم تجف... ياسلاف... ياحبيبتي... ولن تجف... لن تجف...

ولكن اين انت الآن ياسلاف؟. اين الأطفال؟ اين الاصدقاء؟ اما كان... ينبغي ان ينتظرني أحد؟

فانتكس ثانية... بفعل الاسئلة التي تنهال على رأسي... وتطحن روحي...

لاشك ان الجهة التي (أنقذتك) من حريتك ومن (خطرها الفتاك) قد اعلمتهم بموعد وصولك... إنهم كائنات مهذبه متمدنه، لانهم يحترمون القواعد والأصول. ويحترمون جداً... قداسة... الإتيكيت والسلوك الحضاري... أكثر بكثير مما يحترمون الانسان نفسه.

فلماذا... لاتجد احداً في انتظارك؟

لكن الدنيا... تبدو مقلوبه قد صار سافلها عاليها... وبات عاليها سافلها... حتى انني لم أعد أدري في خضم هذه الفوضى الخارجة عن كل بديهيات العلم والمنطق... اين اضع سؤالي... لمن اوجه إستفساري. كيف اصوغ اختياري... كيف... كيف... وقد إختلطت الاشياء... كلها... كلها...

ألبث.

ألبث اولاً...

ثم... الأجوبة... التي تمتص الاسئلة - أو قد تمتص بعضها- بعدما اخذت تتناسل وتتكاثر... بطريقة عشوائية... حتى احالت راسي الى خلية زنابير... لاتعرف الهدوء... ولا تركن الى الاستقرار

- سلاف... سلاف...

واسمع صوتها... ملء أذني... ويتشرب كل كياني... نبرتها العذبة الحنون...

- حبيبي.

- رأسي ياسلاف. رأسي ثقيلة... كاني أحمل فوق جذعي جبلاً... وجذعي يابس... يابس كشجرة عجوز... إنقطعت عنها المياه

- ارحها... يا حبيب روحي... ارح رأسك في احضاني...

- اخشى عليك... ان يلمسك الهواء... هل اثقل عليك برأسي

- رأسك في حضني... أخف من الهواء... بل هي هواء... حياتي... ياحبي... تعال ... ياحبي... تعال... اسقي جسدك ... حياة حبي... وحب أولادنا...

أولادي... أولادي... قد عدت اليكم... عادت اليكم شجرة السنديان... كما تسميني امكم... عدت اليكم... تسلقوا أغصاني تفيأوا بظلي... أنا... أقيكم الحر والقرّ... انا شجرة السنديان.

ولكن شجرة السنديان... ياسلاف. قد جفّت... أيبسها بعدها عنكم... اكل الدود جذورها... المتغلغلة فيكم...

- سلاف... حبيبتي انت ترشحين عرقاً... تعالي نأو... الى ظل الشجرة هنيهة...
- انت شجرتي التي آوي اليها... انت سنديانتي الدائمة الاخضرار... الوارفة الظلال... إليك ألتجيء... كلما نال مني تعب أو هددني خوف.
- آه. ياليمونتي الحلوة... أنت شاعرة...
- الحب شعر... ياحبيبي...

وأحتضنها... فيحتوي ذراعاي... كلّ الدنيا... وكل الآخرة... وأعتصر الزمن كله... أحنّطه في حالة حب... لايجدها زمان... ولا ...

آه... ولكن الزمن يسيل... الزمن من بين أناملي يسيل من مسامات جلدي يرشح... ويسيل... ومحطات الحضور المشبع بالغد... سرعان... ما يصبح ماضياً... ويجثم الحاضر بثقله على الروح... يسد الأنفاس. متى يصبح الحاضر ذكرى... يبتعد بإستمرار... وتظل تلهث خلفه... كما يلهث الظمآن خلف سراب في صحراء محترقة... وتأتي كل دقيقة لتسقط بينك وبينه مسافة جديد تظل هي الأخرى تتسع وتتسع وتزيدها خطوات الزمن إتساعاً وإبتعاداً... فتبتعد أنت الآخر عن ماضي أيامك... بعداً يستحيل إختصاره... كأنك سكبت قدح ماء فوق أرض مترية... يابسة عطشى... هل بوسعك لَمُّهُ من جديد ووضعه في القدح؟ والقدح... القدح نفسه... تهشمه مطرقة الحاضر.

ويجثم فوق روحك الحاضر... بأنفاسه الكريهة... وتلهث هذه المرة... الى الغد... لعل الحاضر فيه يصبح ذكرى. ولكن الحاضر يستطيل... يطول ويستطيل... حتى يبلغ الى الغد ويغدو الغد... حاضراً... غير مرئي... ولكن معاش حتى النخاع...

آه... ماأقسى ذلك!

ماأقسى أن يفرغ القدح...

ماأقسى ان يحتويك غد ... غير خارج من رحم الامس، ولا ملقح... ببذرة اليوم... غدٌ نغل... لايمت إليك بصلة... إلاّ بصلة البغض والعدواة.

لا... لا..

قدحي لن يفرغ... ولن أعيش إلاّ غدي... سيظل قدحي... ممتلئاً بمياه الحياة... جديدة نقية صافية... مثل صفاء عيون سلاف... ونقائها.

٥-٢-٢-

سلاف... سلاف

يضع سبابته على الجرس... يضغط بقوة توجع اصبعه... يشق الصمت المخيم رنين... قصير حاد... لايلبث سوى ثوان أو ثانية واحدة...

وسرعان مايردم الصمت... اجزاءه المخربة... ويخرس بقايا الرنين بعدما يسحقها الى الابد...

يضغط على الجرس مرة ثانية... وينتظر ولا يسمع له أنّة.

ولكني في المرة الاولى سمعت الأنين بوضوح.

أسمعته حقا؟ ام سمعت ماكنت تمنّي به نفسك ان تسمع.

لا...لا... لقد سمعت الرنين... يزعق.

جرب... جرب... ثالثة...

ويخنق الصمت الجاثم أنفاس كل صوت. لاشك انهم قطعوا النور عن المدينة... مع ماقطعوه من مظاهر الحياة الأخرى... وأحالوا... المدنية كلها الى قبر كبير... تتخلله... قبور... عدة.

إطرق الباب... بقبضة يدك... وما الجدوى... هل للموتى آذان كي تسمع؟

ورغم قناعته تلك... يرفع يداً ثقيلة... يهوي بها على الباب... يدوى صوت

الطرق قوياً... استجابة لهاجس داخلي يتولد في اعماقه. ينقل بصره من نافذة الى أخرى... ومن باب الى آخر..

ماأعجب ذلك.

لاأحد.

لاأحد يخرج من بيته... لينهره على فعلته في إحداث هذا الدوي... وإقلاق راحة الناس، فالنوافذ لاتزال مغلقة والأبواب بقيت موصدة... كما لو انها قد غدت بعض الحائط... حائط عال طويل... بلا فتحات... بلا نوافذ... بلا ثقوب... ولا شقوق يخترقها صوت... أو... همس... الأمر الذي شجعه على معاودة الطرق... على نحو أقوى وأشد.

المدينة نائمة. لا... لايمكن ان تكون ميتة... أو... أو... لا أرجو لها ان تكون ميتة.

نائمة؟ نائمة في عز النهار؟ ايمكن. أخشى... ان تكون حية فعلاً وسلاف؟ والأطفال؟ والأصدقاء والناس؟ و..؟ و؟ لعلهم كانوا بعض قطرات النهر المتدفق نحو المجهول... الذي جرفك معها... ولم تنتزع نفسك منه إلاّ بشقّ النفس.

جائز... كل شيء جائز.

فمنذ ان حلت اللعنة بالمدينة... اصبح المستحيل ممكناً. أذكر أنهم حين اقتلعوني... من بين اشجاري وبستاني كان مفتاح بيتي في جيبي. أتراهم لم ينتزعوه منك. مع ما إنتزعوه من اوراقك الخاصة... واشيائك الأخرى العزيزة؟

كفاك مضغاً للأسئلة! مد يدك الى جيبك... تخرج باليقين.

تسقط يده في الفراغ... تخرج وأنامله لاتقبض إلاّ على الفراغ... آه... الفراغ... الفراغ... قد ساد الدنيا... وغزا حتى جيوبي... التي لم تفرغ قط من قصاصات ورق مطبقة... ومن قطع حلويات لذيذة للأطفال... أو من فتات خبز وحبوب للعصافير...

والعمل؟

إدفع الباب.

ها؟

لم لا؟ هيا... هيا لاتتردد أليس باب بيتك؟

حقا، إنه بعد كل شى... وقبل كل شيء... فيدفع الباب بقوة، ويُفتح على مصراعيه ... ويدلف بثقة وإطمئنان ويترك الباب على حالة مفتوحاً. لعل آخر... كائناً من كان يبغي الخلاص من عزلته ووحدته... فأهلاً به... في داري...

يصعد السلم ببطء وتؤدة... ولهفة متعاظمة... للقاء الأحبة. واذ يبلغ غرفتها العلوية... يفتح الباب برقة... ولين... ممنياً نفسه بمفاجأة سارة... مع زوجته وأطفاله.

يجول بنظره هنيهة. في أرجاء الغرفة... كل شيء في مكانه... عجيب!!

أتكون غرفتك، وحدها من بين كل مخلوفات الله وموجودات الدنيا... واشيائها... قد تمردت على الإنقلاب الذي خضع له... كل شى في المدينة..؟

الأثاث نفسه... السرير... آه... والسرير أيضاً... السرير الذي شاء له حظة السعيد... ان يكون شاهداً... على اسعد لحظات حياتك واشدها... إمتلاءً بالفرح والحرية... كما شهد اشدّ ساعات سلاف ومخاضاتها الموجعة... المتوجة دائماً بأشواق حياة جديدة مضافة. والمكتبة... أيضاً لاتزال كما هي... منتصبه على ارجلها... ولكن ماهذا؟ أين الكتب... أين المجلات... أين... أيكون احد الأحبة من الشياطين الصغار... قد بعثرها... وزرع بها ارضية الغرفة... كما إعتادوا أن يفعلوا... كلما وجدوا انفسهم. وحيدين في البيت؟

يطيل التحديق... يمد من عمر نظراته... وهو يرنو الى الأشياء حوله... بحنين المُهَجَّر... العائد الى بيته بعد غربة طويلة ممضة.

تتسلل اليه رائحة غريبة... كريهة... تنبعث من مكان من الغرفة... يسد أنفه ويقول لنفسه "الستائر مسدلة ويبدو ان زمناً طويلاً قد مضى على ذلك" يتقدم بإتجاه النافذة ولكنه يتوقف إذ يتناهى الى سمعه صوت همهمة... كأن احدهم يقضم أو يمصمص شيئاً ما... ترى ماهو؟ من هو؟ إبني... هل تمكن؟ أتركَهُ

الكل وحيداً ونسوه؟ لا...لا... وإلاّ هجم عليَّ بحبّه العنيف... وطوقني بذراعيه الودودين... وإنهال عليه بفمه العصفوري... بالقبل.

ش... ش... ش...

من خلال الظلمة الحقيقة التي تنسجها الستارة المسدلة في أرجاء الغرفة... تبين طفلاً دون الثالثة... يرفع نحوه وجهاً... كان يراه لأول مرة... وإذ يتأمل عينه الواسعتين الجملتين... المصوبتين نحوه بصمت... يخطو نحوه... بحنان متزايد... متجاوزاً كل اسئلته... التي ظلت بلا اجوبة... يصطدم، وهو في طريقة اليه، بالسرير... فيتحرك... السرير... سريره... سرير سلاف... بينما يندفع الطفل نحوه مكركراً... مسروراً... كلمات... تزيد من حيرته... تتكسر في حلق الطفل قبلما تبلغ أذنيه... ولكن كلمات أخرى... تصدر من السرير... نصف مخنوفة... تحت الغطاء.

- مَنْ هنا...؟ إبتعد يا...

يفهم كل شيء... إذ يتعرف فيها على اللغة نفسها لغة الذين إحتجزوا حريته... و...

إمتدت من تحت الغطاء الذي يجلل السرير... يد هزيلة... وتتوهج الغرفة... بنور ساطع... ويزاح الغطاء عن جسدين لايغطيهما... سوى العري... ممدين على السرير.

أتكون قد اخطات في الدار... ودخلت غرفة، غير غرفتك لايحق لك دخولها... بأي حال من الأحوال... وتحت أى ظرفٍ من الظروف... لما تمتاز بها... الحالة من حرمة وقدسية ولكن ... مستحيل... مستحيل تماماً... من الممكن ان أخطيء في وجهي الذي تعكسه المرأة... وفي إسمي الذي احمله من أكثر من أربعين عاماً... ولا يمكن أن أخطيء في داري... في غرفتي في اشيائي... التي ارشها... منذ عشرين عاماً... بالحب.

وإنتصب الجسدان العاريان... وا خجلتاه.

إمرأة متهدلة مثل كيس مطاط لم يمتليء بالهواء بشكل متقن ورجل هزيل... لو سقطت عليه بصقة يسقط على قفاه...

- من أنت ابها السيد..؟ وكيف تقتحم علينا بيتنا[1]... بهذا الشكل الوقح؟

- بيتُكم... بيتُكم... أيها الداعران.

وسرعان مايقرأ الرجل الهزيل... العزم والغضب المتقد... في عينيك فيتراجع... محتمياً بالمرأة البدينة... التي إرتعبت هي الاخرى... وإحتواها الإرتباك... والإضطراب... حتى نسيت أن تستُر عُريها... فظلت جامدة في موضعها... كتمثال سيء التناسق... صنعه مثّال فاشل... فشعرت أنت بالخجل والاشمئزاز... فأدرت وجهك... وصرخت بهما:

- كيف تدنسان... عش أحلامي... أخرجا... أيها اللصان... أسترا عورتاكما... وإنقلعا...

وبينما تروح تنتظر تنفيذ أمرك غير قادر على النظر اليهما وهما على حالهما البشع ذاك. ينهال شيء ما، قوي عنيف على رأسك من الخلف... ثم يتهشم زجاج نافذة غرفتك...

وعبثا احاول العودة الى بيت احلامي وعش صغاري فقد أُغلقت الابواب... وأُحكم إغلاقها.

٦-١- وهذا الوحش... اين هو ؟

ويمرق بجانبي شيء ما أشبه بكرة... ركلها احدهم بقوة هائلة. لايسعفني الوقت. بسبب سرعته الخاطفة... أن اتبين ملامحة. تفتح على اثر مروقه نوافذ عديدة تطل منها رؤوس كثيرة... تقذف وجوهها الدهشة.

- آه. انه لايزال حياً...

- آه. انهم لايعملون شيئاً من أجلنا.

- كذب. كل وعودهم وإدعاءاتهم كذب.

(١) للتأكد من صحة إدعائه بملكية البيت... أرجو الرجوع الى الهامشين السابقين المتعلقين بـ"صاحب" اللحوم و"صاحب" الفواكه. فقد سلك هذا البيت طريقاً مشابهاً في الإنتقال أو... إرجع الى المقطه (٢-٢) فتعرف الحقيقة.

م.زنگنة

- لاأحد... يحفل بنا.
- ونحن عاجزون عن فعل شيء.
- آه... ما أقسى ذلك... ما أقسى كل شيء.

وتتصوب الوجوه نحوى... كانها تستهدفني شخصياً.

- إنتبه... ايها المجنون...
- إختف... يامجنون... لاتبحلق على هذا النحو... اختف... يا... هذا... توار... عن الانظار...

تلفتُّ ذات اليمين واليسار... فلا أجد خارج البيوت سواى. اذن فانا المجنون المقصود... مجنون؟ أنا مجنون؟ وأكاد... اطلق قهقهة... مدوية. لولا ... ان موجة من الكلمات والخطاب المباشر منطلقة من النوافذ... تحاصرني:

- أجل... أجل... أنت... أيها المجنون.
- لقد... مرق الوحش من جانبك.
- حذار... ان يلمسك.
- ستنقل الوباء الى المدينة...
- ارجموه... ارجموه...

ويسرع الشيء نفسه، على مرأى مني... ولكن مرة اخرى افشل في التمعن... في ملامحه... ويظل في ذاكرتي. كائنا هلامياً، مندفعاً، نحو مكان ما... غير واضح المعالم...

احاول ان أتكلم الى الرؤوس المتدليات لكن النوافذ، تغلق كلها، في الوقت نفسه، وتختفى الوجوه. وهي تجر معها دهشتها... لتظل تجترّها ممزوجة بشكوكها التي تتسع... خلف الجدران الصماء.

ثم... يرفّ دثار الرعب الذي ترتديه المدينة مجدداً... ومن تلقاء نفسه... وتعود الاسئلة الحيرى تتراقص على صفحته من جديدة... على أنغام الخوف والرعب... التي تمتلىء بها حتى تلافيف الهواء... وذراته.

٦-٢ عدا المياه. للسمكة الحرية ان تعيش أينما تريد.

- مهلاً... مهلاً فانا..

- اذهب الى الجحيم... أنت و...

وتسقط بقية عبارتي في الفراغ.. كما تتبعها بقية عبارتهم.. فلا أحد منا يفهم الآخر..

العتمة... تحتوي المدينة... وتقمّطها...

املاً... في بصيص من النور... في شعاع من الضوء... ارفع... بصرى نحو السماء... ولكن السماء لم تعد السماء نفسها. بل... بل لم يعد ثمة سقف للفضاء يسمى السماء... لقد استحال السقف... سحائب داكنة من الابخرة والادخنة تتقيؤها بنايات عالية... فتنسج غطاءً أسود ثقيلاً... يخنق الأنفاس... يتشكل كابوساً روحياً... يفرز الكابة... في النفس...

مرة أخرى... أرى النوافذ مغلقة... والابواب موصدة... وسائر الفتحات والشقوق مسدودة... والناس...آه... حتى الناس... قد... أُبدلوا... بناس آخرين... لايمتون بصلة الى ناس... مدينتي المتداخلين... المتآخين... المتحابين... الممتدة بينهم جسور المودة... الشادة بعضهم الى البعض... مشاعر الصدق المضمخة بعطر الألفة الريانة... بطراوة العاطفة الحقيقة... التي تشد الأعماق الى الاعماق وتفتح الاعماق الى الاعماق... دون خوف... وبلا شكوك... لا... لا... هؤلاء ليسوا هم... ليسوا ناسي الذين اعرفهم ويعرفونني... الذين أحيا بهم... ويحيون بي هؤلاء... صُم... ُبكم... عُمي... لايرون... ولا يسمعون... ولا يتكلمون لقد... عقد الرعب ألسنتهم... بل قصها من منبتها... ولم تبق في أفواههم... ألسنة... أو ماشابه... ففقدوا... القدرة على النطق... وتقطعت فيما بينم وشائج المحبة... وتهشمت جسور التواصل... فترامت بينهم صحاري من الجدب واليبس والجفاف... صحاري لابداية لها... ولا نهاية... لايسمع احدهم الآخر... وبدوا اشبه بمجموعة سفن شراعية تائهة في خضم بحر لجبّ... صاخب. يقتل الموج الغادر الكلمة المحلقة... وتغتال كلاب البحر... كل محاولة للتواجد عبر الآخرين... والشمس... آه... الشمس نفسها لم تعد شمس مدينتي الكريمة... فقد أزورت وأقلعت عن فرش ارضها... جبالها ووهادها... اشجارها وانهارها بالفضة... صارت لاتمنحها الدفء والنور... لقد... أصابها... العطب... هي الأخرى. آه... ماذا جرى للدنيا...؟ ماذا حل بمدينتي...؟ ماذا حدث... لأهلي...

زوجتي... اطفالي...؟ أكانوا... ذرات ملح. أُلقيت في البحر... أم...أم ... ابتلعهم الوحش...؟ واين هو هذا الوحش؟ ماهو؟ ... اي كائن خرافي... هو هذا الوحش الذي بات يجرد مدينتي من كل مظاهر الحياة... وينشر الظلام والموت في أرجائها وكيف تسنى له ان يقيم الحواجز والأسوار... والسدود والجدران بين الإنسان والإنسان... وبين الانسان ونفسه... وذاته... الطامحة أبداً... للقاء... مع ذوات الآخرين... وأنا... أنا... أريد ان أتكلم... أريد... ان أصرخ... ان أبكي... أن اضحك... أن أعوي أن... أن... امارس أي شيء... يقنعني بأني مازلت إنساناً بشراً كائناً آدمياً... بوسعه ان يضحك... ان يبكي... ان يجوع... ان يحلم... ان يعمل... ولم يصبح... صخرة... تتقاذفها الاقدام... وتركها... كل حين.

لماذا تنكرني مرتين على هذا النحو البشع... لماذا تدير لي ظهرها كأنني لست إبناً... من أبنائها البررة... بل حتى أشد ابنائها براً بها... وبتاريخها؟ لماذا تشيح بوجهها عني... كلما... فتحت لها عيون قلبي وروحي... واحتضنتها في سويداء فؤادي... وزرعت في اعمق اعماقي... شوارعها... وازقتها وبيوتها وحتى مزابلها... لماذا...؟ لماذا...؟ لماذا؟

كيف تهيأ لهذا الوحش ان يدخل مدينتي... في أية غفلة من الناس دخلها واخذ ينشر الرعب... والعزلة بين سكانها...؟ ثم... ثم... متى كانت مدينتي مأوىً للوحوش؟ لماذا صارت كذلك الآن؟ آه... ماأفظع ان يكون الإنسان وحيداً. يقرض اعصابه في مدينة مهجورة... خالية إلاّ من الصمت والفراغ... الآن... الآن فقط ادركت مدى فظاظة وقوة العقوبة التي فرضتها عليَّ... "دائرة حجر الحريات الشخصية والعامة" بإعادتها اليَّ حريتي كي اعيش... وأجوب، وحدى... ووحدى فقط... مدينة حرة!! تمارس طقوس حريتها ومراسيمها... بكل حرية... بحرية تامة... تنحت معالمها... وتحفر وجودها في الخوف... والوحدة... والموت... البطيء الذي بات يتسلل الى كل ما ومَنْ فيها ويتنزه في أرجائها... فوق جثث... وأشلاء كائنات لاحياة فيها... ولا دماء تجرى في عروقها... أي جدوى لحرية تمنح لمخلوقات ... بعدما... تُسرق منهم حيواتهم.

الحرية... ياسادتي الاحرار جداً!! ليست تحفة نادرة... ماسة نغلة لامثيل لها في الوجود كله... لايمتلكها سوى افراد قلائل... أو بالأحرى فرد واحد... يستمدّ

منها امتيازه الطبقي... وزهوه الطاووسي واستعلاءه القانوني على الآخرين... الحرية واقع يومي... مناخ بشري... ينبغي أن يعيشة ابسط الناس... حتى النخاع... الحرية... ارادة شخصية واجتماعية لاتتحقق إلاّ عبر تحقق ارادات الآخرين... الشخصية والاجتماعية... أية فائدة... من حرية تلبس فرداً في دنيا لايجد فيها للحرية ظلاً يأوي اليه من نيران الإضطهاد والقتل اليومي... يلاحقة الارهاب بألسنته اللهيبية أينما يتوجه... لتقذف به أو تدفعه دفعاً في أتون العذاب... هل... يتواجد إنسان حر... في مجتمع كله عبيد... هل توجد شجرة خضراء في صحراء من الصخر... والعقم... والجدب؟ ما نفع حرية تمنح لسمكه تُنزع من المياه... ويُلقى بها في الصحراء وسط الرمال الحارقة والأشواك المسمومة... انها كبرى الخديعات ان تعشش حرية، مهما ضؤل حجمها وصغرت مساحتها بين طيات إنسان معزول عن اخوته... منطقع الجذور والاغصان عن الآخرين... هل أنا حرّ؟ لا... لا... وألف لا... أنا لست حراً... مثلما ليس حراً على الاطلاق من لايستطيع أن يحقق أدنى رغبة من رغباته الإنسانية... فالحرية مسؤولية تاريخية... إذ أن "كلّ إنسان مسؤول عن كل ما يجري في العالم"... فما هي مسؤوليتي... أنا المعزول عن كل العالم... بل وحتى عن نفسي. ما نفعي لأي شيء في كل العالم، أو حتى بعض العالم... بل... بل حتى لنفسي؟ أنا المحنط داخل مدينة جوفاء... ناسها صخر، حياتها حجر...؟ لن أكون حراً... إلاّ حين اختار موقعي بين الآخرين فأين هم الآخرون... أين الآخرون...؟

أيها الحانوت- أو الحانوتي- الذي يتعاطى بيع وشراء... الحريات... أو بالأحرى توابيت الحريات وقبورها... اني أعيد اليكم حريتي... وتابوتها الذي تتنفس فيه وتعيش فيه... لقاء حرية الآخرين... حرية مدينتي ... حرية ابنائها... وادفع حياتي ثمناً لها... شرط ان لاتكون محشوة في... في... تابوت... محمول على أكتاف الموتى...

ولكن قبل كل شيء... لابد أن تضع يدك... على هذا السر الرهيب الذي يجوّف مدينتك على هذا النحو المريع...

- هيه... أنت... أنت يا من أسكنوك في هذه الدار...كائناً من كنت اخرج إليَّ...

لأراك... وتراني... لأتحدث اليك وتتحدث إليَّ... هيا... هيا... أخرج... أخرج إليَّ... أنا أعرف انك هنا... قابع... في غرفة من غرفها المغلقة على نفسها وعليك... هيا... هيا... هيا.

طاق..طاق..طاق... طا طا طا... ق ق ق...ء.

وتردد المدينة، من اقصاهما الى اقصاها... اصداء ضرباته على الباب... كضربات هائلة تنهال على طبل خرافي اجوف. يعيش دوامة الصدى... يرشح جسمه عرقاً بارداً... يحس بجفاف شديد يملأ حلقة... يخنق كلماته... يزحف نحو افكاره... يئدها... قبلما تبصر الحياة... تتسلق سقف حلقه حشرة بأرجل اخطبوطية منشارية، لايعرف لها اسماً... يهمّ ان يتقيأ كل ما في جوفه... بجد فمه ناشفاً مليئاً بنشارة الخشب... تتساقط على الأرض كذرات من التراب وقطع من الحصى... يشتد الجفاف، يترسخ في داخله اليبس. يهمُّ أن يصرخ... أن ينطق... مستنجداً بشخص ما بقوة ما... فيجد لسانه ثقيلاً جامداً يأبى الحركة، كأنه قد استحال الى كتلة رصاص... يضرب يديه في الهواء يعلو صرير الريح... شبيهاً بفحيح ثعبان يتلوى بين احراش غابة يابسة... ويشتد اليبس اكثر... يشمل كل انحاء جسمي... فأحس بأكثر أعضاء جسمي متخشبة... اسمع لحركات أطرافي قرقعة كما لو ان مجموعة من قطع خشبية جافة تتضارب. أبذل جهدا خارقاً لأتحسس واتلمس قطعة الطين... المشدودة فوق نبض حياتي، فألقاها هي الأخرى خشنة... مزروعة بالشوك... أحرك شفتيّ فأحس بهما تتشققان... وتنزفان دماً. وبصوت مخنوق أصرخ:

- مـ... ا... ء مـ... ا... ء.

لا احد يسمع صوتي... حتى أنا لا اسمع صوتي...

اضغط على... كتلة الشوك... فتدمى أصابعي... أصرخ ثانية .

- مـ... ا... ء مـ...ا...ء السمكة يلزمها... الماء.

أيضا- لاتتجاوز نبرات صوتي حدود جسمي...

٧-١- الرؤية... بعيون الغير .

الصوت: ايها المواطنون... يا ابناء مدينتنا العزيزة المنكوبة. إطمئنوا... فقد

التقطت أجهزتنا الألكترونية الحساسة كل حركات وسكنات الوحش الغريب، الذي داهم المدينة على حين غرة. كما رصدت سائر اتصالاته المريبة العلنية منها والخفية. ولا يخفى عليكم ان معرفة العدو، تشكل الخطوة الاولى نحو الإجهاز عليه... فاطمئنوا واركنو الى الهدوء... وضعوا ثقتكم اللامحدودة بقادتكم الذين يواصلون الليل والنهار في العمل من اجلكم. إنهم يفكرون... ويخططون... ويرون... بالنيابة عنكم... كي يصنعوا لكم أسباب السعادة... والعيش الرغيد...

اصوات: "تنبعث من امكنة متعددة مختلفة... وتبدو جراء ذلك متداخلة... متشابكة... لايتبين منها أحد... شيئاً ... ما".

.....

.....

.....

.....

٧-٢- أغريب عن أرضه ، من سقى تربتها بعرقه ودمه ؟

وحدى...

وحدى... اجرجر حريتي صليباً على ظهري... مدقوقاً في عظامي.

صرخت: ها.

ردد الصدى: ها... ها... ها... ه ...ه.

ضحكت: ها ها ها ها...

رجع الصدى: ها ها ها ها... ها ها ها ها... ه... ه.

قهقهت: ها ها ها ها ها ها.

امتزج الصوت بالصدى: ها ها ه... ها هاه... ها ها ها ه ه ه ه.

دوّى صوت:

- من هذا الوقح الذي يجرؤ على الضحك علينا في محتننا ؟

- محنتكم؟ اين هي هذه المحنة؟ لقد سجنتم المدينة كلها في محنة وهمية...

في كذبة حقيقية... اخرجوا... من قوقعاتكم حطموا جدران سجونكم... تحرروا من مخاوفكم.

وفُتحت النوافذ من جديد... وتدلّت رؤوس... رؤوس بشر ولكني عبثا احاول التعرف على اصحابها... "لا..لا... من المستحيل ان يتصرف الانسان على أي منهم" انهم تشكيله غريبة من المخلوقات الآدمية... بألوان واشكال وسحنات... لاهوية تجمعها... ولا لون يوحدها... بينهم الأسمر شديد السمرة حد السواد. وبينهم الأصفر... شديد الصفرة حد الشحوب والمرض... فيهم الأنيق حد الإفراط في الأناقة. والأشعث... غير المشذّب... أمعن النظر في هذه الكائنات البشرية... أو بالأحرى... اللابشرية، فأتبين من الأجساد المتراصّة بوضوح وجه المرأة البدينة... تحتضن طفلاً دون الرابعة... تتلصص بوجهها تشبع فضولها في التطلع الى الشارع... واذ تلتقي عيناي بعينيها... تتوارى. لا... لا... لاتتواري... لن اعرض عريك على احد... ولكن عليكما... ان تغادرا غرفة أحلامي... أيها اللصان القذران...

- آه... المجنون... المجنون ثانية...
- ويلتاه... لقد عاد الى المدينة مرة أخرى...
- انه هو... هو... من يجلب النحس والشقاء الى المدينة...
- هو... ولا أحد سواه...
- أيكون... هو... الوحش... المقصود...
- هو من يبث الرعب... في المدينة...
- خلصونا... منه... أنقذونا منه...
- ليرحل عن مدينتنا[1]... الآن... وفوراً.
- ليُلقَ به خارج السور...
- لقد أقمنا السور باجساد أبنائنا وأزواجنا... فما جدواه إذا كان لايمنع تسلل... هذا الجرذ.
- إرحل... ايها الغريب... إرحل... إننا لك... ناصحون...

أرحل عن مدينتي؟ كيف؟ مستحيل.

(١) كي لاأثقل عليك عزيزي القاريء بالشروح أرجو الرجوع الى الهوامش السابقة.

إنها مدينتي... مدينتي أنا... جذوري تمتد الى اعمق اعماقها... هنا ولدت... كما ولد آبائي واجدادي... وهنا أموت - ان كان لابد أن أموت - كما ماتَ آبائي واجدادي... في...

- أنت... غريب... لاأحد يعرفك.

انتم الأغراب... انتم الغرباء. انتم الغربان. أنتم الغروب آه... لا... لا... لاتختفوا... لاتتواروا خلف الحيطان... دعوني... أنفذ الى اذانكم التي ملأتها الأكاذيب... بصوت الحقيقة... بصوت التاريخ... بصوتي... آه...لا...لا.

وأحتمي بكفي... من قطع... القطن المندوف التي أخذت تتساقط على رأسي... والتي شرعت تتداخل... لتستحيل سحابة صفراء. تمطرني وابل... من البصاق... ولكن... إذ يلامس الأرض... يستحيل الى قطع من اللحم الممضوغ... والعظام المتكسرة... والدم المسفوح... والجلد المتشقق.

٨-١- الرعب زاداً يومياً ، توزعه الدولة مجاناً... وبالتساوي!!

المدينة ترتجُّ رجاً غريباً... احس بان الأرض تميد بي... تهتز من تحت اقدامي... تنجرّ... كما لو كانت بساطاً... تسحبه قوة لامرئية.

أتوقف عن الجري... محتمياً بحائط. تلقيني الصدفة. أو تلقيه على مقربة مني... وانا احاول استرداد توازني... واتلفت، بعدما التقط انناسي المنقطعة... مستطلعاً... فإذا المنظر الآتي اتابعه... من موقعي... كشريط سينمائي...

يمتلىء المجال المنظور... بدبابة... ضخمة هائلة الضخامة... لاتلبث ان تتلاشى... يمثلي الكادر هذه المرة... بقافلة طويلة من الدبابات تبدو عن بعد مناسب... تسد الأفق... تسير كلها باتجاه واحد... ثم تتفرع الى خطوط سير... متقاربة... ومتباعده... تعقبها اولاً ...ثم تحيط بها... مجموعة كبيرة من السيارات... والعربات الحديدية... تحيط بها من كل الجوانب... ألوف مؤلفة من المدرعات... كل هذه... الآليات... لايظهر فيها... ولا منها... مخلوق... بشري. كأنها تسير... آلياً... أو تسيرها... أجهزة... غير مرئية... وهي، كلها، تمتاز في سيرها... بنظام دقيق.

بعض البيوت والمباني... تتهاوى... تعلو على اثرها... اصوات كائنات بشرية... صارخة... زاعقة... ممتزجة ببكاء وعويل... تتخللها نداءات استغاثة بلغة غير واضحة... لأنها بلغات متعددة يستحيل تبيانها... أو تفريق بعضها عن البعض... سرعان ماتتلاشى كلها في هدير الآلات وضجيجها وصخبها... يطغى على الأحداث جميعاً أزيز طائرات تطير بسرعة خارقة... وبأعداد كبيرة... تحجب عن المدينة النور... فتسقط... لثوان في ظلام دامس... ثم تنخفض الطائرات... وتنخفض... حتى تكاد تلامس بيوتاً لاتزال قائمة... فيتحول الأزيز... الى هدير... يصم الآذان...

ثم يدوى الصوت مجدداً، بقوة، مختلطاً بسائر الاصوات الاخرى. ولكن بقدر غير قليل من الوضوح: يا أبناء المدينة التي بلاها الرب بهذا البلاء العظيم... يامن صبرتم وصابرتم... قد آن الآن وقت خلاصكم... ها قد إستجابت دولتكم العتيدة التي تضع مصالحكم فوق كل مصلحة... لتضرعاتكم وتوسلاتكم... وهاهي تزجُّ... بكامل قوتها ومراتبها وآلاتها البشرية واللابشرية... في المعمعة... لنصرتكم... وقد اغلقنا سائر ابواب المدينة... سوّرناها... بأجساد أبنائنا... سددنا كل ثغرة... كل نقب... كل منفذ... وحاصرنا الوحش... من كل الأطراف... وهو هالك لامحالة... الوحش هالك... لامحالة...

رددت المدينة الصدى: الوحش هالك لامحالة... الوحش هالك لامحالة... الوحش ش ش ش...

علا صوت من بين أنقاض أحد المنازل المنهارة... مخنوقاً... ممتلئاً بالهلع:

- لقد بذرتم فينا الموت... قبلما نرى الوحش... اننا نموت داخل جلودنا... أنقذونا انقذونا... انقذو... نا...

مات الصوت... تساقط اشلاءً. بمجرد خروجه من مستودعه فقد سحقه هدير الدبابات التي عادت تجرى مرة أخرى ووجدت نفسي أجرى معها، حيث تجري دون أن أدري... أو أهتم بأن ادري... الى اين تجري..

- إبتعد... إبتعد... أيها المجنون... إبتعد عن الطريق...
- آه... اقتلوه... اقتلوه... لاتدعوه يعرقل سير الدبابات...

- لاتدعوه... يعين الوحش على الفرار.
- اقتلو... عميل الوحش... اقتلوا كل من يعين الوحش على النجاة.

وتوقفت الآلات جميعا... فجأة امام زقاق ضيق... حيث إنسلَّ ذلك الشيء الذي كانت تطارده. توقفت أنا الأخير. إختبأت خلف بناية متهدمة... أرقب من مخبأي... مايجري فوق الأرض... تحت سماء غطتها أو كادت الطائرات.

إنتظرت... محتبس الأنفاس خروج احد من احدى الدبابات، أو المدرعات، اوالسيارات... اتحدث اليه... وافهم منه... جلية الامر.

بيد ان انتظاري طال وطال... ومع طوله... وبسببه أيضاً... راح صبري يقصر... ويقصر... حتى نفذ... فاضطررت ان اخرج من مكمني. خطوت بحذر شديد نحو دبابة... قريبة منى... وخشية ان يبصرني من فيها... ألقيت بنفسي فوق الأرض... واخذت ازحف نحوها زحفاً... واذ بلغتها... نهضت ارتقبها. بسرعة... وكشفت الغطاء وهالني الأمر... الى حد جعلني أصرخ. غير حافل بكل ما يمكن ان يحدث لي جراء مخاوفي تلك.

- فارغة... ياناس... الدبابة فارغة... ليس فيها أحد... أنا...

عاد الصوت... طاغياً... على صوتي... ملاشياً إياه: لحظات... لحظات... ويتقرر الشكل الذي ينبغي ان يقتل فيه الوحش... شنقاً حتى الموت. أو... رمياً بالرصاص... أو نشراً بالمنشار... وهو... حي حتى يلفظ أنفاسه المعادية. الشكل أيها... الإخوة، مهم. وهو لايقل اهمية وخطورة عن خطورة الوحش نفسه. ولهذا السبب فقد ظهر خلاف بسيط، حول الجهاز الذي يستحق شرف خوض المعركة المصرية مع الوحش. وسينتهي الخلاف بعد المناقشة... مثلما تنتهي كل خلافاتنا بالتفاهم التام... وايجاد الصيغة المثلى... للاجهاز عليه وإنقاذ... المدينة... والبشرية من جرائمه العلنية والخفية التي اقضت مضاجعكم...قتلت النوم من عيونكم... والأمان في قلوبكم.

٨-٢- في إنتظار الجنرال!!

قتل المزيد من الناس يخلق أزمة سكان. "س.ب"

هدم المزيد من البيوت يخلق أزمة سكن. "س. ح"

ليأتِ الجنرال ويقرر. ذلك هو الحق. لعمري ذلك هو الحق. "ق.ق"

[غرفة قيادة العمليات الحربية. احتدام في المناقشات. بين السلاح البري "س.ب". و السلاح الجوي "س.ح". بحضور قائد القوات. ق.ق.]

س.ب: يدخل منفعلاً، أين الجنرال؟ أين الجنرال؟

ق.ق: ماذا وراءك؟

س.ب "بيأس": الدبابات (يتوقف إذ يرى "س.ح" يردد... الدبابات).

ق.ق: ماذا بها؟ ماذا جرى لها... أجب.

س.ب: توقفت.

ق.ق "برعب": توقفت؟ تقول توقفت؟ والوحش. والرعب الذي يبثه في هواء المدينة.

س.ب: كان الوحش على مبعدة خطوات... و... وفجأة توقفت؟

ق.ق: أيمكن هذا (بإنفعال يخاطب س.ح) وأنت. لماذا سكتَّ كالدبابة. أقصد كالغير... لماذا لاتقول شيئاً..؟

س.ح "بغرور": أنا غير مفاجأ بالأمر كنت أتوقع ذلك.

س.ب: محتداً ماذا تقصد يا صديقي الغريم.

س.ح: أوه... لاشيء... لاشيء البتة.

ق.ق: كيف لاشيء. أنت تقصد شيئاً. لعمري انت تقصد شيئاً...

س.ب: بالتأكيد... يقصد شيئاً.

ق.ق: اذن... لماذا لايتكلم... لماذا لايقول..

س.ب: إسأله ياسيدي... إسأله..

ق.ق: اني اسألك... بل آمرُك... وعليك أن تجيب.

س.ح: سيدي... المسألة واضحة... الدبابات عاجزة عن حمل الشرف الذي أُنيط بها... وذلك هو رأيي منذ البداية.

س.ب: عاجزة... دباباتي عاجزة... يا...

س.ح: ولماذا تتوقف إذن؟

س.ب: أنا الذي أوقفتها.

س.ح: إذن قائدها في هذه الحالة، هو العاجز...

س.ب: انا... أنا عاجز عن. "يهم بالهجوم عليه".

ق.ق "يمسك به": تحدث. إليّ. إشرح المسألة لي... أنا... لماذا أوقفتها؟

س.ب: الزقاق... يا سيدي، الزقاق الذي تسلل اليه الوحش ضيق... ضيق جداً... ولو سيرت خلاله أية دبابة تهاوت كل البيوت التي على طرفيه...

ق.ق: ولماذا لاتتهاوى... ماشأننا بها. أنحن الذين بنيناها؟

س.ب.: بل يجب ان تتهاوى. تتهاوى وتتهدم كل البيوت التي يحتمي بها الوحش.

ق.ق: إذن. ما هو الإشكال... أنا لاافهم... لعمرى أنا... لاأفهم شيئاً...

س.ب: الموافقة، ياسيدي لابد من موافقة الجنرال اولاً.

ق.ق: آها... حق... لعَمري ذلك حق...

س.ب: "منتصراً" وبإعتباري عسكرياً ملتزماً صارماً... مطيعاً... لاأسمح لنفسي بالتورط في أي عمل يمكن أن لايرضى عنه الجنرال "موجهاً الحديث لـ"س.ح" أنا لن أفرط بسمعتي العسكرية وإنطباعات سيدي الجنرال الطيّبة... عني...

ق.ق: ذلك حق... لعمري... ذلك هو الحق... وهو ماينبغي ان نحرص عليه جميعاً... عسكريين منضبطين... مطيعين...

س.ب "بتباه": أرأيت ياصديقي وغريمي... أرأيت مبلغ العمق... والحكمة في تصرفي؟

س.ح: بالإمكان جعل تصرفك أكثر حكمة وعمقاً. (يسكت متعمداً)

س.ب "بإهتمام":كيف؟

س.ح: اذا واجهت العدو شاهراً سلاحه عليك... وجهاً لوجه أدر له ظهرك... ريثما يأتيك امر من الجنرال بالهرب... أو... بالقتال.

س.ب: آه... آه... أنت تستهزيء بي... ياهذا... ولكني... أعرف كيف... "يهجم عليه".

ق.ق "يوقفه": رويدكما... رويدكما... الجنرال قادم... ولكن قل لي... ألا... يفلت الوحش... حتى...

س.ب: دباباتي وآلياتي... تسد فم الزقاق... بإحكام... لاتدخل ولا تخرج منه... نملة.

س.ح: وطائراتي تحجب السماء. وأنا... (أصوات أرجل وقرقعة سلاح)

ق.ق "بقاطعة بسرعة متخذاً هيئة الإستعداد": الجنرال. لقد وصل الجنرال... أنا اسمع وقع اقدامه... إستعداد... إستعداد.

٩-١- القرار .

"ايها المواطنون... يا أبناء مدينتنا الشجاعة:

ان الوحش الذي سلبكم الأمان والراحة... وزرع في عيونكم اشواك الرعب وإبر القلق... قد دنت ساعته فقد وصل الجنرال... بشخصه الكريم... الى الميدان. وبالنظر لخطورة الأمر ودقة الموقف... وتجنب سفك المزيد من الدماء... واحداث المزيد من الدمار... فقد قرر سيادته ان يخوض المعركة، وحدة. على كافة الجبهات... مستخدماً كل مايراه من الأسلحة والعتاد... والناس. فابتهلوا الى اللة تعالى... ان يوفقه في مهمته الصعبة ويعود سالماً... منتصراً... داحراً الوحش ... الى الابد..."

٩-٢- ليكن... مايكون .

ساقتحم هذا الزقاق... وليحدث مايحدث!!

يحتويني زقاق ضيق... تنهض على جانبيه... بيوت واطئة تضرب عليها ظلمة... تجللها بالسواد... ويطبق عليها صمت ثقيل... يجعلها تبدو... كانها... مجموعة قبور... متلاصقة...

"ثمة مزبلة في نهاية الزقاق." تذكّرني بها... رائحة العفونة التي تشتد... كلما أدخل في العمق...

أين الوحش؟ ذلك كل مايهمني... وفي سبيل معرفة ذلك يهون كل شيء"مَنْ

هناك؟" أتساءل إذ يتناهى الى سمعي صوت طقطقة عظام تتكسر. خلف كومة أوساخ وقاذورات..

أحمل... جسمي فوق أصابع قدمي... وأمد عنقي فأرى مخلوقاً... يشبه ذلك الشيء الذي مرق بجانبي... بضع مرات... أمعن فيه النظر... بدقة... أحدق فيه طويلاً... حابساً أنفاسي... إنه هو... هو بعينه... ولكنه... ولكنه... كلب... مجرد... كلب...

صرخة مكتومة... تندّ مني... مصدوماً... بخيبة مريعة... هل يمكن؟ ايمكن ان تبلغ الخديعة... خداع الناس... هذا المبلغ... اتوقف مصعوقاً تماماً... تنتابني حالة غامضة... لا أعرف لها اسماً... ولا افهم لها معنى... فأتوجه إثرها اليه... الى الكلب... كوچ ... كوچ... كوچ... يلتفت نحوي... يهم بالهرب مرعوباً... أتناول عظمة... ألوح له بها... فيتوقف... يتطلع الى بعيون نصف مغلقة... أُلقى بالعظمة أمامه أبتسم في وجهه... أهشّ له... راغباً من اعماقي... ومصمماً بصدق على كسب ودّه... و... صداقته... يظل يرنو اليَّ... في استغراب ثم يتناول العظمة... يشد عليها با بـ.."بأسنانه" امدّ له يدي واشير اليه بصمت أن تعال ... تعال ... لاتخف مني... لا لا... تخف... يهز لي ذيله... أصرخ بصمت... رائع... عظيم تلك علامة رضى وإطمئنان. تعتلي شفتيَّ إبتسامة. يخيّل إليَّ أنها تنعكس على وجهه هو الآخر، على شكل مشروع إبتسامة... يكتمل. بعد مضي بعض الوقت... تتسع عيناه... فألمح فيهما حمرة غير عادية... كأنما تشكوان لي الظلم الذي لحق صاحبهما... تسقط العظمة من بوزه فلا يحرك ساكنا... يظل جامداً بكل كيانه... ثم يتدلي لسانه ... ويروح يلهث... وترتجف... كل عضلة في جسمه. أناديه مرة اخرى... لايتحرك. يرسل نظرات ساهمة... ولا يستجيب لندائي... فأخطو نحوه... بحذر شديد امد يدي... يمدُّ رأسه ويحرك ذيله... واجد نفسي مترعاً بمشاعر الود التي يبديها نحوي. امسد راسه بحنان... فاشعر بخشونة غير طبيعية للمس شعره... ثم اتبين... بقعة دم... متخثر... تكسو مساحة واسعة من رأسه ورقبته. لعل احدهم قد اصابه... فأحتضنه بحب... يتجاوب مع مشاعري الداخلية ويروح يتمسح برقة وحيوية... إذن فأنت من أسندوا اليك أن تلعب دور الوحش... كي يملأوا المدينة برعب

وهمي... ويخلقوا المناخ الملائم... لما يخططون ويدبرون...

ياللفكاهة... ياللمرارة!! لماذا لم يتقمص الوحش احدهم... إن أياً منهم أقدر على تنفيذ الدور... واجدر به... وهو بالتاكيد سيكون أكثر إنسحاماً مع نفسه... إذ يعبر بصدق عن كل مايرغب ويهوى... أما أنت... أنت أيها الصديق... الأمين... فالأمر يعني نفياً كاملاً لوجودك. ولعلك لهذا السبب رفضت ونفيت نفسك الى هذه المزبلة ... لا ألومك... فهي أفضل من المدينة الخانقة التي يخفونها... بصورة دائمة... وبشتى الأشكال. تحت أطنان الاكاذيب... والخدع... التي تتفتق عنها... عقولهم المريضة...

- لو رأوه... لقطّعوه... إرباً... إرباً.

- لن يراه أحد... لن أدع أحداً يراه... اضمه الى روحي أشق صدري... وادخله بين ضلوعي. اشده اليَّ اكثر... فيستسلم لي... بصمت... فيشتد حبي له... ويتعاظم عطفي عليه... فأنهال عليه تقبيلاً... وضماً...

والرعب الذي يتمشى في المدينة... ويتنفسه الجميع... أأتركه... ينشر الناس بمنشاره الخرافي؟ أما يتوجب على ان اصفعهم بالحقيقه وأمزق أمامهم الأكذوبة التي يخوّفون بها الناس؟

بلى... بلى... ذلك ما ينبغى ان أفعل.

- وأنت... أنت أيها الصديق... اما يضيرك ذلك؟

واتطلع اليه... أستأذنه في مهمتي... واطلب اليه ان يساعدني... فيرفع الى عينين خابيتين... فاسرع أنفي مخاوفه:

- لا... لا تخف... لن ادع احداً يمسك بسوء... حتى ولو ذبحوني...

ابتسم في وجه... مشجعاً... ومطمئناً... فأكاد أرى أن الإبتسامة قد عادت الى... ملامح وجهه.

١٠-١- بلاغات... بيانات... نداءات . .

١٠-١-

.....

١٠-١-٢-

.....

١٠-١-١٠٠-

.....

١٠-١-١٣٠-

.....

١٠-١-١٧٠-١٠-١-" "-١٠-١-" "-١٠-١-" " الخ . . .الخ [1]

١٠-٢- كل ظلام العالم عاجز عن اطفاء شمعه . "ناظم حكمت"

كل اكاذيب العالم عاجزة عن طمس حقيقة . "انا"

- هيه!! أنتم... يا من تنفخون في الابواق ومكبرات الصوت. ينبغي ان تخجلوا من أنفسكم ومن الاكاذيب... التي تنسجون بها الخوف والظلام في المدينة... لتصنعوا بطولة جوفاء تضفونها على جنرالكم، هاكم... هاكم الوحش الذي ترغبون به الناس. انظروا اليه. تاملوه جيداً... انه أكثر ألفة ووداعة... حتى من كهنتكم... ودهاقنتكم الذين يؤدلجون لكم اعمالكم المشينة... انظروا انظروا... ان كان بوسع عيونكم ان ترى...

وتفتح الستائر والنوافذ وتطل رؤوس، بيد أني أرى العدد هذه المرة. في تناقص واضح... إذن فقد أتقن الموت عمله جيداً فحصد بمنجل الخوف الكثير والكثير من الرؤوس.

وما أكاد ارفع الكلب عالياً فوق رأسي... دليل إدانة لصانعي الاكاذيب... حتى يطبق على المدينة ظلام ثقيل... يشرع الكلب يختض... ويحاول التملص والإفلات من حضني... ولكني اربت على ظهره مطمئناً... بأن الظلام مهما

(١) ظلت البيانات والبلاغات والنداءات تكرر وتجترّ نفسها بشكل فجّ كما ظلت لغتها... في تقريريتها... وعقمها... وجدبها... لذا... فقد... قررت إهمالها.

م. زنگنه

اشتد وتكثف... فإنه لايخيف، أو على الاقل يتوجب عليه ان يخاف منه... إذ لايعدو حالة وقتية... تزول... وتعقبها حالة أو حالات اخرى... قبلما انهى حواري الصامت الذي اجريته من جانب واحد... يتحقق حدسي... فيمزق الظلام الجاثم ويلاشيه تماماً، ضوء وهاج. شديد التوهج، يوشك ان يعمي عيني... فأدفع عماي المتوقع... بعمى اختياري موقت فأغمضهما لفترة، لاادري مداهما حتى انتبه الى ان الكلب يلمس عيني... فأفتحهما... وأراه يتطلع نحوى كأنه يقول لي... قد زال الخطر عنك... فأبتسم في وجهه معبراً لة عن عميق شكري وتقديري.

ويعلو من مكان ما... صراخ... زاعق:

- هلموا... ياناس... هلموا... اخرجوا من بيوتكم... اخرجوا من مخائبكم... فقد اجهز الجنرال بنفسه على الوحش، صرع الليل الذي خيم على المدينة. وعلّق في سمائها شمساً ساطعة. انظروا... انظروا... لتروه بأم اعينكم... الوحش... الذي...

ولا أسمع بقية الخطاب... إذ يستبد بي فضول شديد... فأتلفت ذات اليمين واليسار... باحثاً بـ"أمِّ عيني" عن الوحش فلا أرى شيئاً... وانظر حيث ينظر الناس... فأشاهد هيكلاً عظيماً لكائن غريب، خرافي... هائل الضخامة. فوق عربة مصفحة... ثم أرى الجنرال نفسه ينزل من العربة صغيراً قميئاً... مثقلاً بالأوسمة والنياشين... يسيل من بين شفتيه الإبستام... بكرم وسخاء... وبلا حساب... ولا مسوولية...

يخرج الناس من بيوتهم... يغادرون مخاوفهم ويقبلون على الجنرال... يتهالكون لتقبيل يديه اللتين يمدهما لهم بلا حرج... واذ تنتهي مراسيم التقبيل واللثم. يستخدمها للتلويح للرؤوس المطلة من النوافذ... وللاجساد المرتمية على اسوار الشرفات... مرحاً... سعيداً... بما حققه لهم... أو حققوه له...

إحتجاجاً على الإستغلال البشع الذي لحق بوجوده، يتنحنح الكلب فيخرجني من ذهولي ويذكّرني بواجبي... لعمل شيء ما إزاء مايجري ويحدث امام "أمِّ عيني" من نزيف للحقيقة... وإنتصار للكذّاب... فألوّح به عالياً... وأصرخ بوجوههم صرخات هستيرية... ولكن لاأحد... يلتفت نحوي... عدا طفلة صغيرة

دون الرابعة... تبتسم في وجهي. فاشجعها وادعوها إلى أن تحرر كفها... المسجونة في قبضة المرأة التي تمسك بها... وتهرع اليّ... ولكن المرأة تلحق بها بسرعة وتجرها من شعرها بقسوة... وهي تزعق:

- لاتشذّي عن الجمع... كم مرة حذرتك...

واجدني أصرخ بها:

- ولكن الجمع حمار... دعيها.

غير أنها تهملني تماماً... وتخفق كل الرفسات التي تسدد من الطفلة الى بطنها... ويطويهما الزحام معاً. واندب متوجعاً... آه لايزال الكذب اقوى من الحقيقة وأشد تاثيراً في الناس... وانصاره ومروجوه... أضعاف انصار الحقيقة وعشاقها... ولكن اين الوحش؟

من أي متحف للحيوانات المنقرضة جلبوا... ذاك الهيكل العظمي؟ أملاً أن اعرف السر... أتقدم بإتجاه العربة... ماهذا؟ ماذا حل به... العربة المصفحة نفسها... ولكن الوحش اين الوحش؟

لعل أحدهم... اخذه بعد تمثيل المهزلة البائسة نفسها في مكان آخر... أو... أو... آه... ماهذا؟ ان المنظر يصدمني تماماً... ليس فوق العربة... غير تل صغير من شمع مصهور... قابع مكان الوحش المزعوم تماماً... انه كل ماتبقي... من الوحش... المرعب... المفترس الضاري... الذي أحال نهار المدينة... ليلاً... لا أوحش... ولا أظلم منه... أهمّ ان أصرخ... عودوا... فقد إنجلت الحقيقة. لقد كشفت الحقيقة عن نفسها بكل جلاء... ولكن الصوت يختنق في صدري أو بالأحرى... أخنقه في صدري... إذ أراني وحدي والكلب بين ذراعي، فأشدّه الى صدري... فوق قطعة الطين المشدودة الى قلبي... كأعزّ واثمن صديق... فيتلاشى شعوري بالوحدة... يمد الكلب لسانه المبلل الرطب... مخترقاً فتحة قميصي... ويلحس كرة الطين... وأتحسسها أنا الآخر... بلهفة وشوق... فأجدها... طرية لينة... مشبعة بالحياة... فأصيح بفرحٍ غامر:

- سلاف... قد عادت الحياة... عادت إلينا الحياة...

وأرنو الى الشرق... فأرى القمة السوداء التي كانت تحجب الشمس تتمزق... والأفق يتشرب حمرة خفيفة... أشبه بحمرة الفجر الوليد. أخطوا نحو الأفق

الأحمر... خطوات واسعة... أشعر... كأني اطير في الفضاء... وانا أسير فوق الأرض... أضغطُ على البرتقالة فأجدها ريانة... تفيض بالحياة... أشدّ صديقي الى ضلوعي... وأسرع في خطوي ماأستطيع.

١٩٧٠-١-٢٥

القوقعة

- الغريبُ... أني لم أعد أشعر بالجوع.

قالها حسن، نافخاً نبرات صوته ببهجة خاصة.

لم يكن صادقاً. فقد كان الجوع مايزال ينهشه من الداخل، دون أن يخفف من وطأة آلامه، سحق سويقات القمح المتيبسة بين أسنانه... وإمتص البقية الباقية فيها من الرطوبة، ولم يكن يهمه ان يكون صادقاً أو خلافه، فقد كان يبغي تمزيق أو حتى تخديش شرنقة الصمت الخانقة التي لفتهما، منذ ساعات طويلة.

كان في حوالي الخامسة والعشرين. بديناً صبغت وجهه حمرة فاقعة. لم تستطع شعرات لحيته الصفراء الثابتة إخفاءها. منتفخ الأوداج... يتوسط وجهه المدور شارب أصفر دقيق، يعلوه جبين ضيق متغضن عيناه تبدوان كثقبين غائرين. يخفيهما حاجبان كثان أصفران توزعت شعراتهما، بلا انتظام في مساحة غير صغيرة.

ظل الصمت الثقيل مهيمناً. بعدما عاد الى الإلتئام بسرعة وبكل ثقله مما تطلب أن يبذل محاولة أخرى لكسر هيمنته التي شرعت تقلقه.

-أ... أ... أ... أشعر... كأني... نسيته... تماماً... عـ... عـ... عمي إبراهيم.

- لعل طول معاناة المرء تنسيه أشياء كثيرة.

أجابه صاحبه.

كان واضحاً من نبرات صوته الباردة اللامبالية، أنّه، هو الآخر، لايهمه مبلغ ما يحمله كلامه من صدق، ولا مقدار مايمكن ان يوقعه في نفس صاحبه من أثر.

وقد قال ماقال لأنه يتحتم عليه أن يقول شيئاً. أي شيء بوسعه أن يلهيه

عن حقيقة الحوار الداخلي الذي كان يجريه مع نفسه ومع أفكاره الصاخبة الخرساء التي لاتتوقف عن التوالد... ويسوط به روحه... منذ زمن غير قصير.

رمى اليه العم إبراهيم كيس التبغ. بعدما أنهى لف سيجارته، بلا إهتمام. تلقاه حسن بدهشه بالغة، إذ كان يتوقع... بل وينتظر، كأمر مؤكد، أن يقدم له السجارة التي لفها لتوه. كما إعتاد أنْ يفعل دائماً. وَأَدَ دهشته. وقال بسرعة، بعدما تفل القشة التي كان يسحقها تحت أسنانه:

– المهم... بوسعي مواصلة السير... إذا شئت.

– لُفَّ لك سيجارة.

قالها آمراً... ثم أضاف إذ لاحظ إرتباكه:

– هل تستطيع... أم مازالت عاجزاً عن لفِّ سيجارتك.

– أستطيع... عمي إبراهيم. أستطيع... لقد... لقد... تعلمت.

وأدخل كفه المدوّرة في كيس التبغ وإنهمك في لف سيجارته بينما راح الآخر يمتص أنفاساً عميقة من سيجارته، وينفثها حلقات متداخلة صغيرة أول الأمر، لاتلبث ان تتسع وتبدو خطوطاً صليبية ملتوية متحركة يحملها النسيم المسائي الهاديء الرقيق الهابّ من الشمال، بعيداً... بعيداً حتى تتلاشى فيرسل أثرها حلقات أخرى وأخرى... بعدما يحبسها في جوف حلقه هنيهة، متلذذاً بقرصات الدخان جدار فمه من الداخل... ويتبعها بنظرات شاردة لاتبحث عن شيء. أو تبحث عن شيء لايدري حتى صاحبها ماهو... بيد أنه يعرف يقيناً. أنه ليس الدخان ولا حلقاته. التي يطلقها بين آونة وأخرى... متشابكة حيناً... ومنفرجة حيناً آخر...

كان النهار يتجشأ أضواءه، وهو يوشك ان يلفظ أنفاسه الأخيرة. وقد أخذ الأفق يصطبغ بحمرة خفيفة، بينما بدت السماء صافية لاتشوبها سوى جمرات متوقدة تحيط بقرص الشمس المتوهج، الذي شرع ينحدر بصمت ووقار خلف مجموعة تلال صغيرة تفرش أمامها ظلالاً سوداً... تظهر الاكواخ والبيوت الطينية القميئة ظلاً أسود طويلاً متوحداً... منبسطاً فوق الارض المخضرة... يزحف ببطء وتؤدة مع مساء آخر زاحف نحوهما، مشبعاً بالقلق والوحدة والخوف و... المجهول.

بين الفينة والفينة... يقطع الصمت الذي عاد يجلبب كل شيء. نباح كلبٍ تعبان من بعيد... أو خوار ثور جوعان عائد من الحقل بعد نهار طويل من التعب والعرق.

كان بوسعهما أن يبصرا من موقعهما إذ يرفعان عينيهما الى الأعلى بعض الفلاحين راجعين الى بيوتهم بعد غياب نهار شاق، تتبعهم ظلالهم أو تقودهم... طويلة بالغة الطول... دائمة الإهتزاز واللاثبات.

– لو... لو... تمكنّا من الوصول الى قرية (كاريّزه)... سننجو.

قال حسن... يشحن وجهه بقناعة باتت تهرب منه... تتسرب من مسامات جلده... وهو يضع كيس التبغ الى جانب العم إبراهيم.

أشعل سيجارته البدينة... التي كانت تتفتق من كثرة ماحشاها بالتبغ... فيلحسها بلسانه... ثم يبصق نتف التبغ المرّ، التي تلتصق به.

إتّكأ على يمناه وراح يتطلع الى حيث يرنو صاحبه الصامت الذي لاينطق. كانا بين صخور تل صغير. تخفيهما عن الأنظار صخور أخرى متفاوته في أحجامها... إنحدرت من قمة الجبل... وظلت ساكنة في متدرجاته.

كان العم إبراهيم مرتفقاً يده اليسرى، مديراً ظهره لصاحبه. يقضم شعرات شاربه المتهدلة وينصت الى صوت تقطعها تحت ضغط أسنانه الحادة بمزيج من الانتباه والشرود معاً. شعرات الخمسين البيض متناثرة فوق رأسه... وفي ثنايا شاربيه ولحيته التي لم يحلقها منذ يومين.

– هـ... هـ... هل... تسمعني... عمي إبراهيم.

قال ذلك وهو يهزه بلاعنف، محاولاً لفت إنتباهه اليه.

– ها... ماذا ؟... ماذا تقول...

تساءل العم إبراهيم... وكأنه إذذاك... وإذذاك فقط إنتبه الى وجود أحد معه، وعرف أنه يخاطبه. كرر... سؤاله:

– هل تقول شيئاً.

– أقول... إذ نصل قرية (كاريّزه) بعون الله... نصبح في أمان وننجو... من...

– ننجو؟

تساءل العم إبراهيم بنبرة غريبة. أوقعت حسن في دهشة وإستغراب. فقال في إضطراب:

- أأ... أجل. لم لا... فهي قريتنا... أأ... أقصد قرية خالي... وأولاد خالي هناك و... و...

- وماذا أيضاً...؟

تساءل ثانية من غير أن يكون معنياً بالجواب الذي يسمعهُ:

-إ... إ... إنهم يوفرون لنا الأمان... و... و... وننجو... ننجو بكل تأكيد...

- أتحلم... بالنجاة...

- ط... ط... طبعاً... طبعاً عمي إبراهيم.

- لا... تسرف كثيراً.

أجابه. سريعاً. بارداً جداً. وباقتضاب شديدٍ أثار في نفسه قلقاً وإضطراباً شديدين. فوق مافيها من قلق وإضطراب وخوف. نمت عنهما حركة شفتيه ورجفتهما. وفضحته خضّة السيجارة بين شفتيه. فاسرع وإنتزعها من بينهما قبلما تسقط. ثم إرتد جالساً مائلاً نحوه بكلمه:

- ها..؟ كيف؟ ع. ع. عمي إبراهيم. كيف... هل... تعنى أننا... هـ... هـ... هلكنا.

- خائف؟

سأله بدلاً من أن يجيب على سؤاله. بنبرة يابسة جافة.

أجاب حسن بسرعة... وبلا تروّ:

- أ... أجل.

وندم كثيراً.

كان ينبغي أن يقول لا... ولكنه فوجيء بالسؤال وصُعق ولم يجد الوقت الكافي ليكذب على نفسه ولا على صاحبه.

تعلقت به عيناه وإستحال وجهه البدين المترهل الى علامة إستفهامٍ بليدة مرتعدة... متموجة بألوان طاغية و... شاحبة.

لم يتفوه العم إبراهيم بشيء. إنتصب واقفاً متناولاً بندقيته. علّقها على

كتفه. سحق بقايا سيجارته. وقال آمراً:

- هيا... تحرك.

وسار نحو الأمام... دون أنْ ينتظر صاحبه. وهو يضيف:

- مادمت حريصاً على نجاتك.

حمرة الغسق قد إختفت من الأفق. زحف عليها سواد باهت ثم غطاها... إذ أخذ يتكثف. وقرص الشمس قد غاب هو الآخر ساحباً معه آخر خيط من خيوط النور.

كان العم إبراهيم. أقصر منه وأصغر حجماً. ويبدو ضئيلاً وهو يسير أمام مرافقه البدين ولكنه سريع الخطو مما جعل حسن يهرول بغية اللحاق به.

بدت البيادر خلال الظلمة التي راحت تنتشر كتلاً سوداء قاتمة ضخمة أكثر سواداً وضخامة من كل ما يحيط بها...

تعثرت قدمه بصخرة صغيرة لم يرها في الظلام. كاد يسقط على وجهه وهو يركض خلف صاحبه. ولكنه تغلب على عثرته... وإستعاد توازنه وأسرع في خطواته أكثر حتى صار الى جانبه. قال لاهثاً:

- وأنت عمي إبراهيم؟ ألست خائفاً؟ ألا تشعر بالخوف أبداً؟ هـ... هل... أ. أ... ألا تحفل بالموت... ألا تفكر بالنجاة...

كانت كلماته... وعباراته المتقطعة، هي الأخرى، تلهث. متدفقه من بين شفتيه على نحو غريب لايعرف التوقف إلاّ ليلتقط أنفاسه المتلاحقة... وتقذف بسيل جديد من أسئلته المرتبكة المبتورة.

- سيّان!

آخ... أجوبته القصيرة الحادة كالسكين. تقطع نياط قلبه، تغرقه في ليلٍ قاس من الوحدة والخوف.

حاول جهده أن يقنع نفسه بأنّ الأمر كله لايعدو نوعاً من مزاح ثقيل لايستطيع إستساغته، إلاّ أنّ نبرات الجد الواضحة في كلام صاحبه ومعرفته الأكيدة به وببعده عن المزاح والهزل لاتدعان له فرصة للتمتع بهذا الوهم.

إنحدرا الى وادي "گليله مردۆ" العم إبراهيم أولاً. ثم هو يتبعه. أحسّ

بالرغم من ثقله. وربما بسبب ثقله. أنه يتدحرج. يندفع الى الأمام بقوة وبصورة لاإرادية. كأنّ أحداً يدفعه دفعاً.

كان صفاء السماء ونجومها التي أطلت بوجوهها المتلألئة تنعكس بهدوء واشراق على صفحة ينبوع صغير داخل الوادي يسيل الماء على أطرافه رقراقاً عذباً وينساب بين أعشاب طرية ناعمة ماتزال خضراء بالرغم من جفاف الصيف الزاحف وحرّه.

شعر حسن بجفافٍ في حلقه يكاد يخنقه. ربما بسبب التبغ المرّ الذي أمتص لعابه أو بسبب القيض الذي بات يسربله بالعرق المتدفق من سائر أنحاء جسمه. أو بسبب ركضه الدائم ولهاثه المستمر في جريه وجره جسمه الثقيل وراء صاحبه... أو لكل تلك الاسباب وغيرها لايعرفها، مجتمعة.

قفزت ثلاث أو أربع ضفادع منزعجات من حول ينبوع الماء حين إندفع نحوه وراح يشرب الماء بكفيه الصغيرتين المتورّمتين اللتين لاتحملان إلاّ قدراً ضئيلاً من الماء لايرويه. تمدد على بطنه وغمر نصف وجهه في ماء النبع... وراح يشهق وهو يعب الماء عباً.

صاح به العم إبراهيم إذ رآه يختض ويصدر أصواتاً غريبة.

– حسن... على مهلك... أنت تقتل نفسك.

ودّ ان يقول "سيان" مثلما قال هو. وأن يضيف أيضاً سيّان أن أموت أو أحيا. ولكنه لم يجرؤ، فلاذ بالصمت ولم يجب. لم يكن بوسعه أن يمنع نفسه من التفكير بأنه معرض للموت في أية لحظة.

قد يقتفون "أثرهما" الآن. وبحركة عفويّة وإستجابة تلقائية لأفكاره... إلتفت. لم يكن ثمة غير الظلام الذي عجزت أشعة القمر الباهتة أن تبدده، أو حتى تخفف من تكدسه وثقله داخل الوادي الطويل الذي بدا أشبه بأعماق قبر خرافي كبير، يحيط به من كل جانب ولا سبيل الى الخلاص منه... واذا كان ثمة من يقتفي أثرهما. فلايمكن أن يراه ولا حتى يشعر به إلاّ حين تستقر الطلقة في ظهره. وقبلما يتمكن من مدّ يده الى مسدسه المخفي في طيات حزامه الملفوف على بطنه عدة لفات. صرخ فجأة مثل طفل صغير هاجمه حيوان مفترس:

– عمي إبراهيم... عمي إبراهيم... أرجوك... أرجوك.

– ماذا؟ ماذا هناك يا حسن؟

تساءل الآخر، مصعوقاً من صرخته:

– لا أريد أن أموت... أرجوك. أتوسل اليك... لا أريد أن أموت.

قالها وقد طغى عليه رعب شديد، إمتصّ كل صبره... وقدرته على التحمل جاهداً أنْ يحمّل نبرات صوته كل ما في وسعه أن يحمّلها من آيات الضعف والتوسل والرجاء... المثير للشفقة. ولكن الجواب جاءه ناضحاً بدفقة جديدة من العذاب والقسوة واللامبالاة.

– لا أحد يريد أن يموت... ومع هذا فالكل يموت لامحالة...

ربما يلذ له تعذيبه. هكذا فكّر حسن، ولكن لماذا؟ لماذا؟ ذلك ما لايعرفه ولا يجد له أيّ سبب معقول أو غير معقول.

– و... و... ولكن لاتدعهم يقتلوني... أرجوك... لاتدعهم...

لم يجب الآخر... كأن لم يسمعه... كان قد إبتعد عنه بضع خطوات.

لأول مرة شرع حسن يشعر نحوه بكراهيةٍ لاحدّ لها... إندلقت فجأة بصورة متدفقة لايستطيع كبح جماحها. وهو الذي لم يفتح عينيه على الدنيا إلاّ ليجد نفسه في أحضان العم إبراهيم الزاخرة بالحب والحنان مُربّياً له... وحامياً إيّاه... وتابعاً له كظله... لا يفارقه أبداً....

لم يكن حسن قد تجاوز الثامنة، حين دخل العم إبراهيم قريتهم. هارباً من ملابسات جريمة قتل حدثت في قريته الواقعة على مقربة من الحدود التركية، لائذاً بوالده "الأغا" ذي السطوة والنفوذ، فبسط عليه حمايته وأنزله في نفسه منزلة الأخ الأقرب والساعد الأيمن، وحسن نفسه قد تعلق به منذ ذلك الوقت وأحبه من أعماقه، فقد ملأ ذهنه الصغير بأخبار بطولا ته التي كان يسردها في مجالس والده. ويردّدها جميع أهل القرية والقرى المجاورة. يكفي أن يغضب الأغا على أحد. كائناً من كان حتى يكون في اليوم التالي، مباشرة قد مزقت طلقة العم إبراهيم التي لاتخطيء، أحشاءه، وألقته طعاماً للذئاب الجائعة والكلاب السائبة، أو إلتهمت نيران العم إبراهيم بيدره. أو حقله... أو بيته. في غفلة من الزمن والناس والأعين. وغدا العم إبراهيم أسطورة مرعبة

محاطة بهالة ظاهرها الإحترام والإجلال والمهابة... وجوهرها الخوف من بطشه وغدره... ومن خلاله وبواسطته إمتد نفوذ الأغا في المنطقة وإتسع شاسعاً بعيداً لايجرؤ أحد على الوقوف بوجهه ناهيك عن تحدّيه أو عصيان أمره.

– وفرهاد ؟

تساءل العم إبراهيم، كالغائب عن الوعي... وأضاف بالحال نفسها:

– فرهاد الذي قَتلتُهُ مع إشراقة الفجر... هل كان يريد أنْ يموت...؟

وإنطلقت جرأة مفاجئة من حسن... فأجاب بسرعة وتهوّر:

– فرهاد يستحق الموت وكان يجب أن يموت....

– بل نحن من يستحق... ويجب أن نموت... بيد أننا لانريد.

– فرهاد... دَنّسَ شرف القرية يا...

قاطعة بحدّته:

– شرف القرية؟... هه... شرف القرية...!!

وظل يردد بسخرية... شرف القرية... هه... شرف القرية وكل مرة يشحن نبراته قدراً أكبر من الإستهزاء. ويعقبها بضحكة ساخرة مرّة. تضاعف حقد حسن عليه. وزادت كراهيته له. ولكنه حقد العاجز... وكراهية الضعيف... فأصر على أسنانه كاتماً غيضه ولم ينطق... إلا أنّ العم إبراهيم لم يسكت... ولم يتوقف... وراح يهدر:

– ماذا فعل حتى يدنّس شرف القرية؟

لم يجرؤ حسن على الإجابة، فكرر الآخر سؤاله:

– ها... ماذا فعل؟... قل... ماذا فعل؟

إجتازا الوادي وشرعا يصعدان تلاً واطئاً إعترضهما. كانت الظلمة قد اشتدت. ونور الفجر الذي لاح لهما من بعيد يكاد يختنق في أحشائها.

– لقد أحب سفين وأحبّته. (واصل العم إبراهيم) وأراد أن يتزوجها على سنّة الله ورسوله. ولكن أباك رفض. فإتفقا على الهرب والزواج والعيش بعيداً عن شرورنا.

وأضاف بألم وندم شديدين بعد هُنيهة صمت:

– ولكن شرورنا لم تبتعد عنهما... لحقتهما... حتى... حتى... آه...

لم يصدق حسن أنه هو نفسه العم إبراهيم الذي يتحدث عن أخته بهذا القدر من الإستهانة... غمره خجل شديد... إبتلعت الظلمة حمرة وجنتيه... أحسّ بنفسه تحت وطأته ضئيلاً تافهاً... الى حد بعيد.

– لو وافق أبوك على زواجهما... لما إضطُرا الى الهرب. ولما إضطررت أنا... الى... الى... ولكن آخ... ما الجدوى؟

وأدّى بيده إشارة خرساء.

وباليأس الذي يجوّف من يعلم مسبقاً أنه يخوض معركة خاسرة. قال حسن:

– كيف؟ عمي إبراهيم. كيف؟ يزوّج أختي... لـ... لـ... لفلاح؟

وخرجت كلمة فلاح من بين شفتيه... ناطقة بكل ما تأصل في نفسه وتجذّر من إستخفاف وتحقير.

وفجأة علا نباح كلب. سرعان ما إستحال الى نباح جماعي، إنتبه العم إبراهيم وتطلع الى مصدر الأصوات... كانت ثمة أضوية خافتة منتشرة خلال الظلمة على مسافة ليست بعيدة، منبعثة من الفوانيس الزيتية ذات الذبالات المتحركة التي تتلاعب بها الرياح... يحملها الفلاحون معهم عادة، خلال عملهم الليلي في البيادر... والحقول.

جرّ العم إبراهيم "حسن" الى الجهة الأخرى...

– لنسلك طريق "شيوه سوّر" إنها أسلم... رغم أنها أطول....

تبعه حسن صاغراً، صامتاً. إنحدرا الى الوادي. كان الإنحدار شديداً كلّف حسن جهداً كبيراً، ليظل محتفظاً بتوازنه ولا يتدحرج، أو يسقط على وجهه، أحسّ به العم إبراهيم خلفه يلهث ويتنفس بصعوبة بالغة. إلتفت نحوه سأله بلامبالاته المعهودة...

– تعبت؟

حسن لم يجب. أو أجاب. ولكنه لم يسمعه. أو لم ينتظر جوابه، إذ لم يكن حافلاً به... كعادته حين يقرر أمراً. قال:

– لنجلس . ونلفّ سيجارة.

وقبلما يسمع جوابه، أو ينتظر رأيه. أنزل بندقيته. أخرج من منتصفه كيس التبغ وتقرفص. بينما ظل حسن واقفاً... يلتقط أنفاسه بصعوبة، وهو يمعن النظر فيه بدهشة. كأنه يراه للمرة الأولى. بدا له قميئاً جداً. ضئيلاً جداً... صغير الحجم الى حد غير معقول. وهو مكوّر على بعضه، منهمك في لفّ السيجارة، لم يره قط بهذه الضآلة... أهذا هو العم إبراهيم الذي يخشاه الجميع؟ أليس بإمكانه أن يخنقه بيديه؟ أن يهشم عظامه البارزة بمجرد أن يتمدد فوقه بجسمه الثقيل الضخم؟ أو... أو... وتحسس مسدسه من بين لفات حزامه. أو... أو... طلقة... طلقة واحدة... وتنهيه الى الأبد.

– خذ.

ألقى إليه بكيس التبغ. جفل حسن وإرتعد.

– ماذا بك؟ مريض؟

نفى حسن ذلك بإشارة خرساء من رأسه. أمره العم إبراهيم:

– إجلسْ. لفّ سيجارة. لن نمكث طويلاً.

كان صوته ينبض بقوة غريبة، تشربها حسن بسرعة أربكته وأحسّ بنفسه... يطيعه ذليلاً... ويجلس بصمت. دون أن ينبس ببنت شفة.

بأنامل مرتجفة راح يلف سيجارته. وبلا أدنى رغبة في التدخين. وهو يتساءل بينه وبين نفسه. لماذا تغير على هذا النحو فجأة، ما الذي غيّره؟ ماذا جرى له؟ لقد كان يحبه على الدوام حباً، يفوق حب أبيه، ويمنحه مطلق الثقة. وما أكثر مادعاه الى مصاحبته وهو يربت على خده ويقول له بأيمان "لقد كبرت ياحسن... وآن لك أن تحل محلي... تحمي أباك من أعدائه الأوغاد...". ما الذي غيّره الآن؟ تساءل ثانية... متحسراً... آه... ياربي لو أدري... لو أدري حسب.

إختلس إليه نظرة مترددة. رآه يرفع سيجارته الى فمه. وكعادته يرتفق يده اليسرى وقد مدّ ساقيه. ينفث دخاناً كثيفاً... يتطلع نحو البعيد في شرود ظاهر... ولكنه شرود يخفي تحته يقظة وحذراً دائمين. إنه يعرفه جيداً. يعرفه كما لايعرفه أحد.

هذه المرة لم يجرؤ على التفكير، حتى مجرد التفكير، في الإسترسال فيما كان يمنيّ نفسه به. وكجواب على مايعتمل في داخله ولا يجرؤ لسانه على

النطق به... قال في نفسه "سينقضّ عليّ كالذئب". تلاشت كل أفكاره السابقة. ماتت. قتلها الخوف المدمر الذي يرى في كل كيان. وحلّ محلها أحساس عميق بالحزن والألم. أثاره فيه عجزه التام عن القيام بأيّ شيء تجاه هذا الرجل الصغير... المخيف، الممدود أمامه على الأرض... بلاخوف... من أيّ شيء.

– أ... أ... ألا تقول شيئاً عمي إبراهيم...؟

كان يريده ان يقول شيئاً، أيّ شيء، أن يتكلم. أن يكلمه. لعله ينجو من شبكة أفكاره الأخطبوطية التي مايني الخوف بنسجها في داخله ويوسعها حتى لتكاد تخنقه. ولكن العم إبراهيم لم يفتح فاه. ولم يبدُ عليه أنه قد سمع شيئاً. فشهق حسن "آه... لو يتكلم... يتكلم حسب".

هبت نسمة رقيقة، منعشة، لامست وجهه المبلول بالعرق. داعبت خصلات شعره برفق. شعر برغبة عميقة في النوم... "ليلتان لم أذق طعم النوم".

مساء أمس الأول خرجا. قطعا الليلة الأولى كلها سيراً على الأقدام متلفعين بظلام الليل... مختفيين عن الأنظار. حتى بلغا قرية "كلاوقوت" التي هرب إليها فرهاد وزوجته... ولكنهما كانا قد تركاها... الى قرية "طوبزاوه" التي تبعد أكثر من عشرين كيلومتراً عن الأولى. فقضيا النهار كلّه بين الأحراش والأدغال بعيدين عن أعين الناس والطير والحيوان. ومع هبوط الليلة الثانية حثّا السير. متسترين برداء الليل... نحو هدفهما.

– حسن... حسن

كررها... بصوت أعلى. بهُتَ حسن وإعتدل في جلسته. منطلقاً نحوه بإنتباه:

– نعم... نعم عمي إبراهيم.

لم يلتفت نحوه العم إبراهيم... كان... يرنو بعيداً... و... يتكلم.

– هل تتذكر... خورشيد أفندي.

– خورشيد أفندي؟

– معلم مدرسة "تومار".

– أ... أ... أجل... مابه؟

- لاأدري لماذا تذكرته الآن. المهم... لقد قال لي ذات مرة... ستموت أنت الآخر يوماً ما... يابله گچكول*. والأرجح سوف يقتلك أحدهم فالدماء التي نسفكها... والأرواح التي نغدر بها... لن تذهب هدراً وإذ ذاك لن يجديك الأغا ولا نفوذه ولا أمواله... فتيلاً.

خورشيد مشاغب. أكبر مشاغب. الكل يعرفه... وقد...

- حينها كدت أقتله... ولكني الآن... الآن فقط أتبين مبلغ الصدق والحق في كلامه...

تساءل حسن بإستنكار متردد:

- و... و... ماذا تعني؟ و... ماذا تقصد؟

نهره: أسكت... أسكت.

وسكت هو أيضاً. إستلقى على ظهره. واضعاً كفيه تحت رأسه. وراح يتطلع الى السماء المزدانة... بما لايحصى ولا يعد من النجوم المتلألئة... وقال محدثاً نفسه. بصوت مسموع:

- للمرة الأولى... أرى في السماء هذا العدد الهائل من النجوم.

لم يعرف حسن ماذا يقول... بينما "إسترسل الآخر":

- لقد صدق خورشيد. سوف يقتلني أحدهم ذات يوم. واني لأستحق ذلك. فقد قتلت ونهبت وغدرت وأحرقت وظلمت... كثيراً... كثيراً... جداً... جداً.

وإستوى جالساً. قذف بحجر إلتقطه بعيداً... كأنّه يرمي أحداً تراءى له.

- بدأت أدرك بشاعة الحياة التي أعشيها...الحياة التي توقعني فيها...الخوف و...

- الخوف؟ أنت؟

قاطعه حسن مصعوقاً بدهشة شديدة... بينما أجاب الآخر بهدوء. وبلا إنفعال:

- أجل... الخوف... وأنا. أم تحسبني وحشاً بلا قلب ولا عقل؟

لم ينطق حسن... كان يحدق عبر مشاعر متناقضة الى مثاله الأكمل في الشجاعة والبطش والإقدام... يهتز أمامه... يتهرأ... ينهار... فودَّ من أعماقه لو

* يعني ياإبراهيم الصغير.

يبكي. لو...

- أتدري كيف قتلتُ فرهاد؟

سأله العم إبراهيم وهو يحدّق في المجهول. لم يحر حسن جواباً... أية كلمة تخرج من بين شفتيه... تخنقها الدموع.

في كل مرة إذ كان يعود من مهمته، وهي مهمة شبيهة بالتي أنجزها فجر اليوم... كان يرد عليه بالتفصيل وبهالات من البطولة... التي تقرب من الإعجاز؛ كيف نفذ الأمر، كيف واجه المغضوب عليه وسط الناس. أو إقتحم عليه داره وهو بين أهله، أولا ده وبناته وزوجته... أما هذه المرة، فقد لزم الصمت ولم يفه بحرف واحد... وهو... لم يجرؤ على سؤاله. كانت تقطيبة وجهه وشروده وإنصرافه عنه... يحبط عنده كل محاولة... فيكبت نبر ان فضوله وتشوقه المتأججة في داخله، أملاً أن يبادر هو الى إطفائها...

- لقد... كان... يصلّي الفجر...

بدأ صوته غريباً على مسمعه، متحشرجاً على نحو غير مألوف... ودّ لو يصرخ به أسكت... أسكت... لاتتمادى في تشويه صورتك وتمريغها بالوحل أمامي. ولكن... إنيّ له ذلك... وهو... هو... مايزال سادراً في حلج روحه.

- لمحت زوجته، أختك سفين. مقبلة نحوه من القرية. بإحدى يديها تلصق وليدهما البكر على صدرها. ربما كانت ترضعه. وبالأخرى تحمل خُرجاً. من الظاهر أنه كان يحوي إفطارهما. ليتناولا ه معاً. في فترة راحته من العمل. وأنا كأيّ هرّ عجوز خبيث، خائر القوى، يقتنص الفرصة. في غياب العيون للإنقضاض على عصفور مكسور الجناح... قبعت خلف صخرتين كبيرتين. حابساً أنفاسي. حيث أراهما ولا يرانني. لم أنتظر ريثما ينهي صلاته. أطلقت عليه من الخلف. أصبته. إرتمى على وجهه. متخبطاً في دمه. آه. لم أر... قط دماً بذلك التدفق... وتلك الغزارة. زحف رغم صنبور الدم المفتوح في ظهره نحو بندقيته. عرفت أني لم أصب منه مقتلاً. فعاجلته بطلقة أخرى ثم بأخرى... وأخرى... كان الخوف هو الذي يطلق... هو الذي يضغط على الزناد. أطلقت سفين صرخة مرعبة. حسبت الكون كله قد إهتز وزُلزل. قفزت الى الخلف. تدحرجت. ولم أستقر إلا في قعر الوادي. وصدى صرخة سفين... تزلزل

كياني... وتملأني رعباً... أن تعثر عليّ وتمزقني بأسنانها. أغمض عينيه وإستلقى ثانية على ظهره... غارقاً في صمت متوتر.

كان حسن يتابعه مبهوراً... مبهوتاً... ممتلئاً بإحساس مبهم لايعرف حقيقته. منخوراً بالحيرة، لايدري ماذا يقول - ولا ماذا يفعل. وإذ همّ، بعد صراع مرير قاس... مع نفسه، أن يتكلم شعر بآلاف الأصابع الوهمية تسدّ فاه... تطبق على خناقه. وحين طال الصمت، غير المعروفة عواقبه، وشرعت الوساوس والتوقعات تحاصره، إستجمع قواه... وسأله بصوت خافت... مخنوق... لايكاد يُسمع:

- و... و... بعد؟

- وبعد؟ ماذا بعد؟

أجاب الآخر متسائلاً بحرج، أوقعته في حيرة وإضطراب جديدين:

- أ... أ... أقصد... أقصد... ماذا ستفعل... ماذا....

قاطعه:

- لا أدري. لا أدري أيّ شيء...

وأضاف بعد صمت قصير:

- كل الذي أدريه... أو صرت أدريه... أنه قد بات مستحيلاً أن أواصل حياتي على النمط الذي إعتدت... لا... لا... أظنني قادراً على الإستمرار.

- يعني... يعني... هـ... هـ... تعني إ... إنك...

- لا أعني أي شيء... قلت لاأدري... حتى الآن لاأدري... لم أقرر... لا أستطيع أن أقرر...

وسكت ثانية... ثم سرعان ما عاد يحاور نفسه. بصوت عالٍ:

- ماذا سأفعل؟ أين أذهب؟ آه... ليتني أدري... ليتني أعلم...! يخيّل اليّ... أنه ليس ثمه بقعة من الأرض... إلاّ وبين طياتها ضحية من ضحاياي... آه... لقد أسرفت... أسرفت وتماديت... كثيراً... كثيراً جداً... و... ولماذا؟ من أجل من؟ من أجل من... يا... يا...

ونهض فجأة منتصباً على قدميه. ركل حجراً على مقربة منه بقوة. أمر تابعه:

- قم.

إنصاع حسن بسرعة ونهض وأخذ يسير خلفه، بصمت بينما كان هو يمزق

نفسه:

- ربما أظل هائماً على وجهي. بقية حياتي. حتى تضع لها حداً، ذات يوم قريب - طلقة في ظهري... أو... أو... في صدري ولكن قبل ذلك... قبلما يتمكن مني أحدهم... أرجو الله مخلصاً... أن يتيح لي فرصة... للتوبة... والتكفير... عن... عن... بعض ماإقترفت... من... من...

تساءل حسن بصمت... ترى ماذا يقصد؟ هل سيتخلى عن أبي؟ عني؟ و... و... من يحميه؟ من يحميني؟ لا... لا... لاحق له أن يفعل - لاحق له البتة... إصطدام حسن... الذي كان لشدة إنشغاله بأفكاره... لايبصر قدامه، بالعم... إبراهيم، الذي توقف فجأة... وهو يقول:

- أنظر حسن...

نظر حسن حيث أشار، كانت ثمه أضوية خافتة متفرقة، تقطر من فتحات وشقوق وكوى... بيوت منبسطة على الأرض... تحيط بها أشجار تبدو خلال الظلمة، كائنات خرافية هائلة الضخامة...

- أنظر، تلك هي كاريزه... قرية خالك. بينك وبينها مسيرة أقل من نصف ساعة... والطريق مأمونة... فأمض إليها...أقضِ بقية الليل... هناك... وفي الصباح... واصل السير... برفقة أحد أبناء خالكَ.

كاد حسن ينهار... ويتساقط على نفسه. إلا أنه تماسك بصعوبة:

- و... و... أنت... أنت... يا عمي إبراهيم؟

تساءل بصوت مشروخ... مجروح. وهو يكاد يبكي:

- أنا؟... أنا لن تراني بعد الآن.

- كـ... كـ... كـ... كيف؟ كيف؟...

أجابة باقتضاب:

- إذهب... يا حسن... إذهب.

جمد حسن في مكانه، ينظر إليه يلاحقه. غير قادر على تصديق مايرى ويسمع.

خطا العم إبراهيم، بضع خطوات... ثم توقف وإستدار راجعاً... نحو حسن:

- خذ حسن. خذ بندقية أبيك... أعدها إليه... لم أعد بحاجة إليها... ولن أحتاج إليها بعد الآن...

أدار له ظهره، وأسرع في خطوة، مشبكاً أصابعه خلف ظهره... مائلاً، في سيره نحو الأمام... بإنحناءة واضحة وإذ إبتعد بعض الشيء... بدأ كنقطة... نقطة سوداء تتحرك في الظلام... تبتعد... وتبتعد أكثر... وأكثر... و... فجأة شق الظلام بريق جمرة نار... ومزق سكون الليل صوت "طا...ق" أعقبتهما جمرات أخرى... وأصوات أخّر... مختلطة... برجع الصدى من جهات متعددة وهي تحيط بالنقطة من كل جانب... وتنهال عليها وحواليها بغزارة. وعلى غير هدى... بعشوائية وفوضى... فتضاءلت النقطة. توقف أولاً... ثم إنكمشت على نفسها... إلتصقت بالأرض... تخبطت لفترة وجيزة. ثوانٍ حسب. وقبلما تركن الى الهدوء وتخمد الى الأبد... صدر منها صوت... لم يسمعه حسن... إذ سقطت منه البندقية. بعدما فرغت... وراح بغتة في عويلٍ حاد... وهو يهرع نحو النقطة... ويرغي فوقها... منخرطاً في نشيج... متقطع.

كركوك ١٩٦٧

الجراد

قال ئاسۆس لنفسه، وهو يرنو من خلال النافذة الى أسراب الجراد. التي تغطي المزارع والحقول الممتدة، على مدى البصر:

- والآن سينتهي به الأمر الى إقتحام المنازل.

وإنتابه هلع شديد وألم بالغ؛ وهو يبحث بعينيه، عبثاً عبر الحقول والمزارع والبساتين عن تلك الخضرة الطرية المشعة التي ألقاها... الربيع القادم. على الأرض، بشارة قدوم... قبل حلوله، منذ بضعة أيام حسب من غزو الجراد، والتي إختفت الآن، أو كادت مع ما اختفى من المظاهر الإنسانية في القرية، وفي القرى المجاورة وربما في المدينة والمدن كلها... أو في البلاد والدنيا جميعاً... ولم يعد يبصر كائنا حياً في الخارج، حتى الكلاب السائبة والقطط الضاله... التي كثيراً ما ضج منها الناس، قد إختفت هي الأخرى.

بدت له أسراب الجراد وهي تتطاير في الفضاء، ذرات من الرمل، أثارتها عاصفة هوجاء، بشكل كثيف يسد الرؤية. يخنق الأنفاس. يكاد يحجب الشمس والهواء...

وإذ شعر بضيق في صدره شهق بعمق، ساحباً أكثر ما يستطيع من الهواء، إمتلأ أنفه برائحة نتنة... سدّ فتحتي أنفه قبلما يتقيأ أحشاءه. وقال لأمه التي كانت واقفة الى جانبه ترقب هي الآخرى، عبر زجاج النافذة المغلق، ما يجري في الخارج:

- إن رائحةً قذرة شرعت تنتشر...

أجابت أمه بأسى:

- يبدو أن بعضهم قد مات.

أضافت وهي تسد أنفها: